تفسير سورة النصر

الطبعـة الثـانيـة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ـ١٤

سُورَةُ النَّصرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ
ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا ﴿٢﴾
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ
تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

التقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، فتح لعبده سيد المرسلين فتحاً مبيناً ونصره نصراً عزيزاً. اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، اللهم صلِّ على سيدنا محمد إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين وعلى آله وأصحابه الأبطال الميامين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن قمة التراث الإسلامي وأجل ذخائر العلم الإسلامي مؤلفاتُ السلف الصالح رحمة الله عليهم، فإنها أشد تقيداً بضوابط القرآن العظيم والسنّة النبوية المطهرة، وقد عُني بعضهم بإفراد تفسير قصار السور برسائل موجزة، كالإمامين ابن تيمية وابن رجب وغيرهما، رحمة الله عليهم أجمعين، لما في السور القصار من روائع الأسرار وباهر الأنوار، ولما يترتب على التعبد ببعضها من عظيم الأجر والثواب بجهد يسير ووقت قصير. وإنها لكثرة جريانها على ألسن العامة والخاصة تَعظُمُ فائدةُ الكتابة في تفسيرها لدى جمهور القارئين والمتعبدين من أُمة إمام المتقين صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد وقفت على رسالة «تفسير سورة النصر» للعالم الورع الزاهد العابد الفقيه المفسر المحدث عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، غير أن هذا الإمام لم يشتهر بالتفسير لدى الذين ترجموا له في كتبهم، وهذه الرسالة أول تصنيف له في تفسير القرآن العظيم يقدَّم للنشر محققاً. ولعل الله تعالى يوفقني

لنشر سائر مصنفاته في ذلك؛ تعريفاً بضلاعته في هذا المضمار المجيد، واستفادة من تحقيقه العلمي الرصين.

وأسأل المولى الكريم أن يقبل جهدي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويجزل الثواب لي ولناشره وقارئه، والله ولي السداد والتوفيق.

* * *

نفحات
من سورة النصر

بَشَّر الله تعالى نبيه محمداً سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بفتح أعظم وأشرف بلدة في التاريخ، بفتح أم القرى؛ مكة المكرمة، قال الحق مبشراً مرشداً:

﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ * ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ الله أفواجاً * فسبحْ بحمد ربّك واستغفره إنه كان توابا﴾.

كشفَ الله تعالى ما يكون بعد الفتح من شأن سيد المرسلين، وهو شأن أخوانه المرسلين قبله. فإنك لا تجد في تاريخ أحد منهم، قبل النصر ولا بعده، بعض ما تجده في زعماء الضلال من طغيان وتكبر وتجبر وتطاول وظلم وإذلال للناس... فهذه سورة النصر تُخبر النبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة وتُوجِّهُ قلبَهُ إلى جانب عظيم من جوانب الصلة بالله تبارك وتعالى **﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾.**

وفتح الله على رسوله الأمين وأصحابه الميامين أعتى قلاع الشرك في الجزيرة العربية فدخل مكة ظافراً؛ بجيش عظيم منيع من أصحابه، لم يجتمع من أبناء الجزيرة العربية نظيره قط، وذلك في أواخر شهر رمضان المبارك في السنة الثامنة من الهجرة، دخلها خاشعاً لله متواضعاً، ذاكراً عابداً، يقرأ سورة

الفتح على ناقته. عن معاوية بن قُرَّة[1] قال: «سمعت عبدالله بن مُغفَّل[2] يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح، يُرَجِّعُ. وقال: لولا أنْ يجتمع الناسُ حولي لَرَجَّعتُ كما رَجَّعَ»[3].

أجل! دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة على مشهد من جمع عظيم، وقد دان له الذين ناصبوا دعوته العداء حتى أخرجوه من بلده، لكنه لم يدخلها مزهواً مختالاً. إنما دخلها خاضعاً متواضعاً لله خير الناصرين، وذلك في شهر رمضان المبارك في السنة الثامنة من الهجرة[4].

عن أنس رضي الله عنه قال: «لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، استشرفه الناس، فوضع رأسه على رحله متخشّعاً»[5].

وفي رواية البيهقي عن أنس قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً»[6].

---

(١) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس البصري، ثقة عالم توفي سنة ١١٣. (تهذيب التهذيب ١٠/٢١٦).

(٢) عبدالله بن مغفل المزني، صحابي معروف من أصحاب الشجرة، توفي سنة ٦١هـ. (الإصابة ٢/٣٧٢؛ والاستيعاب ٢/٣٢٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح. و«الترجيع»: ترديد القارىء الحرف في الحلق. و«لولا أن يجتمع..»: قول معاوية بن قرة. (فتح الباري ٨/١٣ ـ ١٤).

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح في رمضان، انظر فتح الباري ٨/٣؛ وانظر سيرة ابن هشام ٤/٣؛ وعيون الأثر ٢/١٦٧.

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ونسبه إلى أبي يعلى ٦/١٦٩. و«الرَّحل»: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، كالسّرج.

(٦) لم أقف على رواية البيهقي هذه في السنن الكبرى، لكن نقلها عنه الإمام ابن كثير بإسناده عن أنس رضي الله عنه، البداية والنهاية ٤/٣٢٦.

وأفادت رواية الواقدي عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توسط الناس على هذه الحال.. تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «العَيْشُ عيشُ الآخرة»[1].

لقد رتب الله على الفتح والنصر أمراً جليلاً عظيماً: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره...﴾ فإن الصلة بالحق تباركت أسماؤه وتعالت صفاته لا يجوز أن تكون قاصرة على أيام الشدة، إذْ يفتقر العبد إلى مولاه، فيناديه من أعماقه رباه! رباه! وهو في أمرِّ حالاتِ الافتقار وأشدِّ حُلك الظلام، ولكنَّ الصلة الواجبة بين العبد وربه صلة دائمة لا تنقضي ولا تنقطع مدى الحياة، مهما أمدَّ الله له في النعم، وأزجى له من العزّ والنصر والسؤدد. ويظل المؤمن المتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم خاضعاً لعظمة الله متعلقاً بجلاله وجماله وكماله وعفوه وإحسانه.

دخل الرسول الكريم أم القرى ظافراً منتصراً.. ودانت له الرقاب.. لكنه دخلها متذللاً لله رب العالمين. فليس في النصر إغراء يحوله عن طريقته الفضلى..!! ولا ما يستدعي أن يقترف شيئاً من جرائم الجبارين، زعماء الغرور والطغيان، من سفك دماء العزل من السلاح، وهتك أعراض الحرائر المسالمات، وسلب الأموال وتخريب الديار وانتهاك حرمات الله، وإهانة الشرفاء والفضلاء، وإذلال الناس وكبت حرياتهم، وملء السجون بجموع النبغاء والكرماء والفضليات الشريفات!!.

إن للجبابرة الطغاة شاكلة شهيرة ملأت التاريخ الغابر والمعاصر نكبات ومآسي وفواجع... ولقد أماطت الأحداث اللثام عن طغاة تسنموا زعامات في

---

(١) المغازي، للواقدي ٢/٨٢٣ ـ ٨٢٤، ط. لبنان؛ وانظر كتاب سيدنا محمد رسول الله، عبدالله سراج الدين، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ط. المدينة المنورة.

الماضي والحاضر فعاثوا في أقوامهم فساداً. . !! وعن طغاة بغوا في الأرض، ظلماً وعدواناً، تجبراً وغروراً، فاقترفوا من فظائع الجرائم ما تذهل له العقول. . !! ولا تغيب عن بالك مجازر اليهود وأذنابهم في صبرا وشاتيلا بلبنان؛ ولا مجازر الهندوس الوثنيين في مسلمي آسام بالهند. . !! وغير ذلك كثير في عصرنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولنا معشر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم شاكلة أخرى وطريقة مثلى، رسمها الحق تبارك وتعالى، وها أنت تشهدها في دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة في أعظم نصر، وقد طأطأ رأسه. . . خاشعاً مخبتاً متذللاً لله واهب النصر رب العالمين ﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾[1] لنا ذلك التواضع الجم والأدب الكامل والتذلل والاستكانة بين يدي الحق؛ جبار السماوات والأرض، لنا طريقة التعامل مع عباد الله، كل حسب حاله ﴿أذِلَّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾[2] من غير طغيان ولا سفك دماء ولا انتهاك أعراض ولا سلب أموال وتخريب ديار. . !! ذاكم صنيع الجبارين ﴿إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزةَ أهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾[3].

جواز الذكر والدعاء بغير المأثور:

رتب الله، تباركت أسماؤه وتعالت صفاته، أمراً عظيماً على منحه المسلمين نعمة النصر والفتح فقال: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾. ولا ريب أن أعلى نماذج ذكر الله تعالى وحمده وتسبيحه ودعائه ما ورد في الكتاب والسنّة. فالله تعالى أعلم بما يليق بكمالاته وعظيم صفاته،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) سورة النمل: الآية ٣٤.

وما يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم إما أن يصدر فيه عن وحي أو عن فهم آتاه الله إياه. غير أن نص القرآن هنا وفي مواضع كثيرة أخرى لم يعين صيغة للتسبيح والتحميد، فدل على أنا لسنا ملزمين بالاقتصار على المأثورات في هذا الباب، بل يجوز لنا أن نذكر الله ونحمده وندعوه، ونصلي على نبيه صلى الله عليه وسلم بالألفاظ والصيغ التي تجري على ألسنتنا وتميل إليها قلوبنا، شريطة أن تكون متفقة مع العقيدة الصحيحة والمعاني الشرعية الثابتة.

ومن المؤسف أن بعض الناس في زماننا من أهل الغلو زعم أن الذكر والدعاء بغير المأثور في الحج وغيره بدعة.

نقول: بل هو من السنّة النبوية، كما دلت النصوص الكثيرة، ما دام بالشرط المذكور آنفاً. ولا ندري ما الغرض من التشويش على المسلمين في عباداتهم الصحيحة!!؟؟.

أما القرآن العظيم فقد جاء أمره بالذكر ونحوه مطلقاً غير مقيد بصيغ معينة.

قال الله تعالى: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب﴾**[1]، وقال أيضاً: **﴿واذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾**[2]، وقال: **﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾**[3]، وغير ذلك في القرآن الكريم كثير. وكل منه يدل على أن أي صيغة تحقق المقصود مع سلامتها مما يخالف النصوص الثابتة، فهي جائزة مقبولة ولقائلها الثواب من الله تعالى. فلله الحمد أن يسّر ووسّع على عباده.

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) سورة النصر: الآية ٣، وانظر سورة طه: الآية ١٣٠.

ولقد أقر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه على أدعية دَعوْا بها من تلقاء أنفسهم في الصلاة وغيرها، واستحسن ذلك منهم.

أخرج الإمام النسائي عن أنس بن مالك قال: كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً، يعني ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا، فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنانُ، بديعُ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ، إني أسألك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «تدرون بما دعا؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجابَ وإذا سُئل به أعطى»(١).

والأحاديث في ذلك كثيرة في السنن الأربعة ومسند الإمام أحمد وغيرها.

وروى الإمام البخاري عن رِفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: «كنا يوماً نُصلي وراء النبي صلى الله عليه و سلم، فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلم آنفاً؟» قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، أيهم يكتبها أول»(٢).

---

(١) سنن النسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر ٣/٥٢؛ ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/١٢٠ و ١٥٨ و ٢٤٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب بعد باب فضل «اللهم ربنا لك الحمد»، على فتح الباري ٢/٢٨٤؛ ورواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى ١/٢١١ ـ ٢١٢؛ ورواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ١/٢٠٤، تحقيق محي الدين عبدالحميد؛ ورواه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الرجل يعطس في الصلاة ٢/٢٥٤، الحديث: ٤٠٤، تحقيق أحمد محمد شاكر؛ ورواه النسائي، كتاب الافتتاح، باب ما يقول المأموم ٢/١٩٥ ـ ١٩٦.

قال الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: «والحكمة في سؤاله صلى الله عليه وسلم له عمن قال، أن يتعلم السامعون كلامه فيقولوا مثله. واستدل به على جواز إحداث ذكر في الصلاة غير مأثور، إذا كان غير مخالف للمأثور، وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يشوش على من معه... وعلى تطويل الاعتدال بالذكر»[1].

الإخبار عن غيب المستقبل:

من أهم المسائل وأوثقها صلة بتفسير سورة النصر وبرسالة الإمام عبدالرحمن بن رجب، هي إخبار القرآن العظيم عن غيب المستقبل.

يستحيل على الرجل العاقل الكامل السويّ التفكير أن ينبىء عن أمر غيبيّ إلا أن يكون على يقين من ربه. فإن الغيب علم اختص الله به. وإن غيوب المستقبل لا سبيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا لقومه إلى تحصيلها. وإنما يتعين الوقوف على حقائقها من سبيل واحدة هي التلقي والتعلم ولكن من علام الغيوب، فاطر السمٰوات والأرض، **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...﴾**[2].

إنّ الإخبار عن الغيب من أهم أوجه إعجاز القرآن العزيز، ويرى كل دارس عاقل إعجاز القرآن الغيبيّ ماثلاً فيه، فإنه لا يحتاج إلى ذوق بلاغي مرهف ومعرفة لغوية عميقة، كما يحتاج فهم الإعجاز البياني في القرآن.

إنّ كلّ نموذج من الإخبار عن الغيب في القرآن آيةٌ إلهية ظاهرة ومعجزة ربانية قاهرة، تهدي العاقل إلى ربانية مصدر القرآن العظيم وإلى نبوة محمد طه الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٨٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

وفي غضون الصراع مع أنصار الضلال، أنزل الله أخباراً غيبية كثيرة تؤكد إحقاق الحق وإزهاق الباطل وتبشر بالنصر الأكيد. ونزلت سورة النصر تُنبىء بنصر الله وفتح مكة المكرمة؛ معقل الشرك يومئذ في الجزيرة العربية؛ وتطهيرها من رجزه، كما تبشر بإقبال الناس على الإسلام أفواجاً أفواجا. وإليك طائفة أخرى من هذا اللون من الأخبار عن غيب المستقبل في القرآن المجيد:

١ ـ إخبار القرآن عن عجز البشر الأبدي عن معارضة القرآن العزيز. قال الله تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**(١).

﴿وإنْ كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين * فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودها الناسُ والحجارةُ أُعدتْ للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾(٢).

٢ ـ إخبار القرآن عن انتصار الروم على الفرس، بعد أن دحرهم الفرس في هزيمة ساحقة، وأضحوْا في حالة ميئوس منها، وأخبرهم أن المؤمنين يفرحون يومئذ بنصر الله، فكان بشارة لهم تحققت يوم بدر كما تحدث القرآن وأخبر **﴿ومَنْ أصدقُ من الله حديثاً﴾**(٣).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٧.

وقال الله تعالى: ﴿ألم * غُلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَغلبون * في بضعِ سنينَ للـهِ الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعْدَ اللـهِ لا يُخلف اللـهُ وعده ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

٣ ــ أخبر القرآن العظيم عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين، مع أن الجهاد بالسلاح لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد توعد بنص القرآن قريشاً، وهو مقيم بين ظهرانيهم في مكة، قبل أن يفكر في الهجرة، توعدهم بهزيمتهم والنصر عليهم، فاستخفوا بوعيد القرآن، وهزئوا منه.

حدثهم الله تعالى عن مصائر الأقوام السابقين قوم نوح، وعاد قوم سيدنا هود، وثمود قوم سيدنا صالح، وقوم سيدنا لوط، والطاغية فرعون وجنده، فقد أهلكهم الله جميعاً وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ونصر رسله وأتباعهم. فما بالك بقريش وليسوا أشدّ منهم قوة ولا أكثر بأساً!؟.

وأعقَبَ تعالى ذلك العرضَ بقوله: ﴿أكفاركم خيرٌ من أولئكم أمْ لكمْ براءةٌ في الزُّبر!؟ * أم يقولون نحن جميع منتصر!؟ * سيُهزمُ الجَمعُ ويُولُّون الدُّبر﴾[2].

قد أباد الله قبلكم أولئكم الجبابرة الطغاة البغاة أُمةً بعدَ أُمة!! فما يحول بينكم معاشر المشركين وبين بطش الله إنْ أرادَ بكم بطشاً!؟.

لَعمري هذا تحذير لكل الطغاة الضالين في كل زمان ومكان!.

---

(١) سورة الروم: الآية ١ ــ ٦.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٣ ــ ٤٥.

لقد أنبأ الله بانهزام جموع المشركين في وقت لا مجال فيه للتفكير في الحرب، فضلاً عن انتصار الضعاف المسلمين على حشود أصحاب الشوكة المشركين! روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت: **﴿سيُهزَمُ الجَمعُ ويولون الدبر﴾** قال عمر: أي جمع يُهزم؟ أي جمع يُغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها**[1].

٤ ــ أخبر علام الغيوب عن دخول المسلمين مكة المكرمة أداءً للعمرة، بعد أن صدّتهم قريش عن دخولها، قال الله تعالى: **﴿لقد صدق الله رسولَهُ الرؤيا بالحق لَتدخلنّ المسجدَ الحرام إنْ شاءَ اللهُ آمنين مُحلِّقين رؤوسكم ومُقصِّرين لا تخافون * فَعَلِمَ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾**[2].

اتجه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة إلى مكة، قاصداً أداء العمرة، فدخلوا مكة المكرمة آمنين مطمئنين، وقد حلق بعضهم رأسه، وقَصّرَ البعضُ الآخر من شعره. **ومكثوا ثلاثة أيام، أدوا فيها مناسك عمرة القضاء، فتحقق لهم نبأ الله الذي أنزل على رسوله، ومن أصدق من الله قيلًا!؟**.

٥ ــ إخبار القرآن عن فتح مكة المكرمة: انهمك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين بعد الهجرة في ردع الأعداء الكائدين هنا وهناك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٦٦، ط. البابي الحلبي؛ والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٠٣.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٨. وانظر تفسير ابن كثير ٤/٢٠٠ ــ ٢٠١، ط. البابي الحلبي؛ والنبأ العظيم، ص ٤٠؛ ومناهل العرفان ٢/٢٧١ ــ ٢٧٢.

في أرجاء الجزيرة العربية، لا يُخمدون ناراً إلا أوقد العدو للحرب ناراً أخرى..!.

في هذه الغمرة جاءتهم بشارة عظيمة فريدة فوق الذي في حسبانهم يومئذ.. أن الله سيمنحكم نصراً عظيماً وعزاً وطيداً، ويفتح لكم قلعة الشرك الحصينة؛ أمّ القرى؛ مكة المكرمة؛ ويتهاوى الشرك كله.. ويدخل الناس معكم في دين الله أفواجاً.. نزلت هذه البشارة تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إمامهم وقائدهم:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

ذهب العلامة عبدالرحمن بن رجب، رحمه الله، مذهب جمهور المفسرين، إلى أن سورة النصر نزلت قبل فتح مكة إذ أخبر الله بفتحها قبل وقوعه. وجاء مستقبل الزمان بتحقق الفتح كما أنبأ الله تعالى من قبل وأخبر. فالسورة علم من أعلام نبوة سيد المرسلين وإلهية رسالته.

استدل الحافظ ابن رجب على تنزيلها قبل الفتح بدلائل أهمها:

١ ــ ظاهر النص القرآني، فقد دلّت اللغة العربية على أن «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان. وعول على هذا بعض أئمة اللغة كالزمخشري في كشافه[1].

ولو كان المراد ذكر فتح حصل في زمان ماض لكان الأظهر أن يقال: «قد جاء نصر الله والفتح وليس **﴿إذا جاء...﴾** فإن «قد» مع الماضي تفيد التحقيق، وهو عندئذ أنسب للزوم الأمر الذي رتبه الله على الفتح وهو: **﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.**

---

(١) الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري ٤/٢٩٣، ط. مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٢ ـ روى النسائي من طريق هلال بن خباب[1] عن عكرمة[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلى آخر السورة، قال: نُعيتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسُه حين أُنزلت، فأخذ في أشدّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: «جاء الفتح، وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله! وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقةٌ قلوبُهم، لينةٌ قلوبهم، الإيمان يمان، والحكمةُ يمانية، والفقه يمان»[3].

أقول: إن المقصود بـ«أهل اليمن» في الحديث الأشعريون، فإنهم طليعة وفود اليمن، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع للهجرة عند فتح خيبر، ويدلك ذلك على نزول سورة النصر قبل فتح مكة. وهو قول الجمهور، وإليه ذهب الإمام ابن رجب، رحمة الله عليه. وسيمر بك تفصيل ذلك بإذن الله.

تكشف الدراسة العلمية المحققة للنصوص، أن هذه السورة الجلية

---

(١) هلال بن خبّاب العبدي، أبو العلاء البصري، نزيل المدائن، صدوق تغير بآخره توفي سنة ١٤٤هـ. (تهذيب التهذيب ١١/٧٧؛ والكواكب النيرات، ص ٤٣١ ـ ٤٣٥).

(٢) عكرمة بن عبدالله، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، ثقة ثبت، توفي سنة ١٠٧هـ أو بعدها. (تذكرة الحفاظ ١/٩٥؛ والتهذيب ٧/٢٦٣).

(٣) أخرجه الدارمي بزيادة عبارات في مقدمة سننه ١/٣٧، ط. دار إحياء السنّة المحمدية. ويبدو أن النسائي إنما أخرجه في السنن الكبرى وهو مخطوط، إذ لم أجده في سنن النسائي الصغرى المطبوع. وأخرج شطر الحديث الأول عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج شطره الثاني الطبري والبزار بألفاظ قريبة. (انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري ٣٠/٢١٥، ط. الأميرية ١٣٢٩هـ؛ وانظر الدر المنثور ٦/٤٠٦؛ وفتح الباري ٨/١٠٠؛ وتفسير ابن كثير ٨/٥٣٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦ ـ ٢٥٧).

سورة النصر عَلَم ساطع من أعلام نبوة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وبرهان باهر على إلهية رسالته، فقد أخبره الله فيها عن سقوط معقل الشرك في المستقبل القريب، لِتقر عين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بتطهير مكة من دنس الشرك والوثنية قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى تباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

ودخلت جحافل الصحابة الغر الميامين مكة المكرمة، بقيادة إمام المجاهدين المتقين؛ فاتحين منتصرين؛ في شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة. ولم يلحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى حتى انحسرت الوثنية عن الجزيرة العربية بأسرها، ولم يعد لها سلطان على شبر منها، ورفرفت رايات التوحيد خفاقة في كافة أرجائها تتحدى المشركين والملحدين. لقد صدق الله وعده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده، لا شريك له لا شيء قبله ولا شيءَ بعده.

ثم دكتْ جحافل الإيمان أعتى امبراطوريتين في العالم الفرس والرومان.. وأسقطت تيجان الجبابرة من أكاسرة وهراقلة وحكام طغاة مستبدين..! كل ذلك في مهلة يسيرة، فلم يمض القرن الهجري الأول حتى بلغ المسلمون مشارق الأرض ومغاربها من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً، دون تدمير بطائرات ولا دبابات ولا صواريخ عابرات.. قرع المسلمون أبواب البلاد وفتح الله بالقرآن العظيم ودينه الحق قلوب العباد.. فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً.. ورفرفت راية التوحيد في روابي العالم بإيمان المؤمنين وخضوع الجاحدين، لقد أنجز الله وعده في كتابه الحق المبين: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهمْ لهمُ المنصورون * وإنَّ جندنا لهمُ الغالبون﴾**[1].

(١) سورة الصافات: الآية ١٧١ ــ ١٧٣.

الحافظ ابن رجب الحنبلي إماماً في التقوى والعلم

نحن بين يدي إمام شهير من أئمة السلف الصالح، وهو إمام قدوة في العلم والعبادة؛ والخلق والأدب والتقوى والورع، لا تزال الأجيال الإنسانية عالة على فضله وفضل أمثاله، وهم جمهور عظيم. ونحن المسلمين نزهو بهم ونفاخر سائر الأمم في كل زمان. وإنما نحظى باحترامها وتوقيرها بسيرتهم وأمجادهم وتراثهم. ولن ترى أمتنا بدونهم عند سائر الأمم تقديراً ولا توقيراً. فمن تعمد الطعن فيهم والانتقاص من حقهم أو حقوق السائرين على دربهم فقد قابل إحسانهم وفضلهم بلؤم منه ونكران للجميل، ووقف بذلك في صف أعداء الإسلام والمسلمين. وإنما يخاف العقلاء على أجيال الأمة الإسلامية من شر كل طاعن في العلماء الهداة الفضلاء؛ ومن فتنه وفساده.

أنت مع الإمام الحافظ العلامة الفقيه زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن الشهير بابن رجب، وهو لقب جده عبدالرحمن. وقد اشتهر الإمام بنسبته إليه فقيل: «ابن رجب الحنبلي».

ويفيدنا التحقيق العلمي أن الحافظ عبدالرحمن بن أحمد بن رجب عبدالرحمن قد ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ. وقد وقع في الدرر الكامنة أنه ولد سنة ٧٠٦هـ ويبدو أنه سهو من الناسخ. ومما يؤكد ذلك أن الحافظ ابن حجر العسقلاني قد أثبت تاريخ ولادته في الدرر الكامنة بالرقم هكذا: «٧٠٦»

وهذا يحتمل السهو والتصحيف، بينما أثبته الإمام ابن حجر نفسه كتابة، هكذا: «سنة ست وثلاثين وسبعمائة» في كتابه «إنباء الغمر بأنباء العمر» وهذا نص جليّ لا يقبل الجدل فتعين اعتماده[1].

تلقيه العلوم عن أئمة عصره:

ينتمي الإمام زين الدين عبدالرحمن بن رجب إلى عائلة علمية، عريقة في الإمامة العلمية. فإن والده كان إماماً مقرئاً محدثاً، قرأ بالروايات في بغداد، وتلقى من مشايخها، ورحل إلى دمشق بأولاده، فأسمعهم بها وبالحجاز والقدس. وتصدى للإقراء في دمشق فأفاد كثيراً. وكان ذا خير ودين وعفاف. مات والد الإمام سنة أربع وسبعين وسبعمائة أو في السنة التي قبلها.

وكذلك كان جده شيخاً إماماً محدثاً، فلا ريب أن الإمام زين الدين استفاد من جده المحدث (رجب) ثم من والده الإمام المقرىء، فقد اعتنى بتكوين ولده العلمي، حتى قالوا عنه: «اشتغل بسماع الحديث باعتناء والده».

وقد انتقل مع والده من بغداد؛ بعد أن فقدت منزلتها واختلت الأمور فيها؛ إلى دمشق، وكانت العلوم فيها مزدهرة، وخاصة علوم القرآن والحديث[2].

وقد توسع الإمام زين الدين بن رجب في التلقي عن الشيوخ، وحالفه حسن الحظ بالتلقي عن كبار الأئمة في عصره، فسمع في دمشق من

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/٤٢٨ ــ ٤٢٩؛ وإنباء الغمر بأنباء العمر ١/٤٦٠؛ وذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي، ص ٣٦٧؛ ولحظ الألحاظ لابن فهد، ص ١٨٠. وقد وقع فيه خطأ في نسب الإمام هكذا: «... رجب بن عبدالرحمن» فكأن رجب اسم جده، والصواب: «... رجب عبدالرحمن»، لأن «رجب» لقب لجده «عبدالرحمن».

(٢) انظر: شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي ٦/٣٣٩؛ وإنباء الغمر ١/٣٧.

محمد بن الخباز وإبراهيم بن داود العطار، وأجازه الإمام ابن النقيب صاحب الإمام النووي. ولكن جاء في شذرات الذهب: «وأجازه ابن النقيب والنووي»[1] وهذا غلط في النسخ فيما يبدو، لأن الإمام النووي توفي سنة ٦٧٦، قبل ولادة الحافظ زين الدين بستين سنة، وقد انطلى هذا الغلط على بعضهم، ولم ينتبه إلى استحالته[2]. وسمع بمكة وبمصر من الأئمة الكبار، قال الإمام ابن حجر عنه: «وأكثر من المسموع، وأكثر من الاشتغال حتى مهر»[3].

وعُني خاصة بالتلقي من أهل الحديث، وسمع من كثير من رواة الآثار، ورافق في السماع الإمام المحدث عبدالرحيم بن الحسين العراقي، قال الحافظ ابن حجر: «ورافق شيخنا زين الدين العراقي في السماع كثيراً»[4].

إن التلقي من العلماء ومشافهتهم أساس طلب العلم عند السلف الصالح. ولا يعرف العلم ولا يقبل بدونه، وقد حظي الإمام الحافظ بأعلى رتبة منه. فإن في العلم دقائق لا يوقف على كنهها إلا بالمشافهة والمدرسة. وبصورة خاصة علم القراءات وعلم الحديث. فلم يحصل في تاريخ الإسلام أن سمى امرؤ نفسه «محدثاً» أو سماه بذلك بعض تجار الكتب. إذْ كان طلاب العلم يرفضون التلقي منه، ما لم يعرفوا عمن تلقى من أهل الحديث ومن أجازه من أئمتهم. فإن لم يحصل له شيء من ذلك شكُّوا فيه وفي علمه ورفضوهما، ولم يعتبروه محدثاً ولا عالماً، مهما طنطن ودندن وتعظم بالدعوى

---

(١) ٦/٣٣٩.

(٢) انظره في: ترجمة سامي الدهان للحافظ ابن رجب، ص ١٧ من تقديمه لذيل طبقات الحنابلة.

(٣) الدرر الكامنة ٢/٤٢٨.

(٤) إنباء الغمر ١/٤٦٠.

والدعاية!! وقد جهل ذلك كثير من شباب عصرنا، نظراً لنقص ثقافتهم الشرعية العلمية! وتجاهل ذلك آخرون تعصباً وتزمتاً وعناداً، على الرغم من إلمامهم بشروط التكوين العلمي الإسلامي، وخاصة علم الحديث. فإذا تورط أناس بوضع ثقتهم في بعض الأدعياء.. نجم عن ذلك شقاق وبلبلة بين المسلمين بسبب أمور، هي أحكام اجتهادية فحسب، لكن لم يحصل نظير ذلك في صف المسلمين في تاريخ الإسلام، على الرغم من اختلاف آراء الأئمة حولها من قبل، بل حول ما هو أجمل منها بكثير! مما يثير التنبه والتساؤل عن الغرض الحقيقي الخفي من وراء تلك الآثارات!؟ خاصة أن المسلمين في عصرنا يعانون مرائر من كيد العدو الكافر سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. كما يعانون غزوه الفكري الإلحادي واغترار بعض أبنائهم به، وتبنيهم إياه دعوة واعتقاداً أو تبعية!؟ وإنَّ إحلالَ الاختلاف في الأمور الاجتهادية الفرعية محل الأمور الأساسية من الدين، في حالتنا هذه وعصرنا هذا، لون من ألوان التطرف، وهو «أعني الغلو أو التطرف» مسلك حرص التبشير والاستشراق والاستعمار على تدريب عملائهم عليه، واستمروا على إمدادهم ودعمهم ليثابروا على إثارة التطرف والغلو في كل اتجاه ديني أو فكري أو سياسي أو اقتصادي أو علمي رائج في بلادنا، فذلك لا يخدم إلا غرض الاستعمار «فَرِّقْ تَسُدْ»[1] وحسبنا الله ونعم الوكيل.

منزلته العلمية:

حظي الحافظ ابن رجب في صباه بالنشأة العلمية القويمة في بيته، ثم بالتحصيل على أئمة عصره، فالتقى ذلك مع ما منحه الله من ألمعية وذكاء، فنبغ في العلم نبوغاً رفيعاً، وبصورة خاصة في الحديث والفقه.

---

(١) انظر بحثنا: الاستشراق، نشأته وأهدافه، ص ٢٣ ـ ٥٩ وخاصة، ص ٤١، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، العدد الخامس ١٤٠٠ ـ ١٤٠١هـ.

لقد بلغ الإمامة في علم الحديث وفنونه، وصار موئل طلاب الحديث، وذاع صيته بذلك واشتهر فضله حتى شهد له إمام عصره ــ وقد أدركه وعاصره ــ وهو الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقال: «ومهر في فنون الحديث أسماء ورجالاً، وعللاً، واطلاعاً على معانيه[1]، وشهد غيره ذلك».

ونبغ في الفقه حتى صار من أعلام المذهب الحنبلي. يدلك على ذلك كتابه القيم «القواعد الفقهية». وتضلع في معرفة رجال هذا المذهب وطبقاتهم وتراجمهم، وألف في ذلك كتاباً قيماً، وهو «ذيل طبقات الحنابلة».

أثنى العلماء على الحافظ ابن رجب ثناء عطراً، ولقي منهم محبة وإجلالاً وإكباراً.

قال ابن فهد عنه: «الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين.. كان رحمه الله تعالى إماماً ورعاً زاهداً، مالت القلوب بالمحبة إليه، وأجمعت الفرق عليه. كانت مجالس تذكيره للناس عامة نافعة، وللقلوب صادعة»[2].

وقال السيوطي عنه: «الإمام الحافظ، المحدث الواعظ، زين الدين...»[3] وقال ابن العماد الحنبلي يصفه: «الحافظ زين الدين وجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن الشيخ الإمام، العالم العلامة، الزاهد القدوة البركة، الحافظ العمدة، الثقة الحجة...».

«وكانت مجالس تذكيره للقلوب صادعة، وللناس عامة مباركة نافعة،

---

(١) إنباء الغمر ١/٤٦٠.

(٢) لحظ الألحاظ، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٣٦٧.

اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه، وله مصنفات مفيدة، ومؤلفات عديدة»[1].

لقد اشتهر الإمام بصفاء القلب ونفاذ الروح وتأثير الكلمة. وأهم العوامل التي رقت به تلك الرتبة العالية ثروته العلمية الغزيرة في القرآن العظيم، وتضلعه في علم الحديث بما فيه من الأخبار المرفوعة، والسيرة والفضائل، وأخبار الصحابة ومناقبهم وحياتهم، وحياة السلف الصالح عامة. وهذه مواد حيوية فعالة في دروس الوعظ والتذكير العام، وهي من آكد علوم الخاصة، كما صرح الحافظ أبو عمر بن عبدالبر[2].

اكتمل علم الحافظ وعَظُم نفعُهُ؛ لجمعه في تكوينه العلمي بين الفقه وأصوله وبين علوم الحديث. ولم يجترىء أحد على الفتوى واقتباس الأحكام من الحديث إلا بعد تمكنه في الفقه وأصوله. وقلما تجد أحداً من مشاهير علماء الحديث إلا متفقهاً على أحد المذاهب المعهودة. فإذا شذّ بعضهم في زماننا فنصب نفسه محدثاً، دون تلق ولا سماع ولا إجازة ولا إقرار من أهل التمكن في الحديث، ثم تمادى فادعى لنفسه الاجتهاد، ولم تجتمع معظم شروطه فيه، وتخبط في فقه الحديث مصادماً للأدلة الشرعية الصريحة، ومخالفاً للإجماع، فإنك لا تجد أحداً من العلماء العاملين المتمكنين يقيم لآراء هذا ومخالفاته وزناً ولا اعتباراً. فيسقط بذلك اعتباره العلمي، ولا تظهر لمنشوراته الكثيرة فائدة إلا ما كان نقلاً سليماً، أو ترتيباً، أو فهرساً. ربما ينبهر بعض المتحمسين بكثرة الإنتاج ويغترُّ بتعدد المنشورات، فإنّ العبرة بالإخلاص والعلم النافع القويم المحقق. وإلا فإن المستشرق العادي الملحد في عصرنا، ينشر في حياته نحو سبعين كتاباً عن الإسلام ونظرياته وعلومه وعقيدته وسيرة نبيه..!! فما قيمة ذلك الإنتاج وما جدواه!!؟.

---

(١) شذرات الذهب ٦/٣٣٩.

(٢) الاستيعاب بمعرفة الأصحاب ١/٨ بذيل الإصابة.

وإنما يكون الإنتاج العلمي الإسلامي نافعاً وموثوقاً إذا صدر عن إيمان صادق وإخلاص نقي وطيب نية وحسن طوية، وتلقّى كاتبه عن العلماء الفضلاء الأتقياء الثقات، ولم يكن فيه تظاهر ولا تقيّة.. ولم يتخذ التأليف والنشر تجارة دنيوية، تدار بأساليب مشبوهة. لقد أكد الشاعر أهمية تلقي الطالب من العلماء، حرصاً على سلامة الفهم والتعلم، فقال رحمه الله:

يظن الغُمْرُ[1] أنَّ الكتبَ تَهدِي ... أخا جهل لإدراك العلوم

وما علمَ الجهولُ بأن فيها ... مداركَ قد تَدقُّ عن الفهيم

ومَنْ أخذَ العلومَ بغير شيخ ... يضلُ عن الصراط المستقيم

وكمْ مِنْ عائب قولاً صحيحاً ... وآفتُهُ مِنَ الفهمِ السقيمِ

مؤلفات الإمام ابن رجب:

قدَّم الإمام ابن رجب مؤلفات نفيسة في مختلف العلوم الإسلامية، وجاء إنتاجه خصباً في الحديث والفقه وفي الوعظ والإرشاد ثم في التاريخ.

قال الحافظ ابن حجر عنه: «صنَّفَ شرح الترمذي فأجاد فيه في نحو عشرين مجلدة، وشرح قطعة كبيرة من البخاري، وعمل وظائف الأيام وسماه «اللطائف» بطريق الوعظ، وفيه فوائد، والقواعد الفقهية، أجاد فيه...»[2].

وقال عنه ابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب: «له مصنفات منيدة، ومؤلفات عديدة...»[3].

---

(١) الغُمْرُ: غير المجرب، جمعها: أغمار. (أساس البلاغة، مادة: غمر).

(٢) الدرر الكامنة ٢/٤٢٩؛ وانظر أنباء الغمر ١/٤٦٠.

(٣) شذرات الذهب ٦/٣٣٩.

من مؤلفاته في الحديث:

توفرت معظم جهود الإمام على خدمة الحديث النبوي فكان له الحظ الأكبر من إنتاجه العلمي منها:

١ ــ «شرح جامع الترمذي» في عشرين مجلداً، ومعظمه مفقود، وإنما بقي منه «شرح علل الترمذي».

٢ ــ «فتح الباري» وهو شرح لصحيح البخاري، وصل فيه إلى كتاب الجنائز، ولم يكمله.

٣ ــ «اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» مطبوع.

٤ ــ «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم» ويحتوي على الأحاديث الأربعين النووية، وهو سفر نفيس جليل، طبع مراراً، وقد طبع بمصر شطره بتحقيق هام نافع للأخ الدكتور أحمدي أبو النور، نسأل الله تعالى أن يوفقه لإتمامه على خير وجه.

٥ ــ شرح حديث «ما ذئبان جائعان» مطبوع.

٦ ــ شرح حديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً..» مطبوع بعنوان «شرح حديث أبي الدرداء».

٧ ــ «نور الاقتباس من مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس» مطبوع.

٨ ــ «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة»، وهو شرح لحديث: «بدأ هذا الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» مطبوع.

٩ ــ «فضائل أهل الشام».

١٠ ــ «شرح علل الترمذي» وقد حققه الشقيق العلامة الدكتور نور الدين عتر، أجزل الله ثوابه وأمتع به.

١١ ــ «المحجة في سير الدلجة» شرح حديث: «لن ينجي أحداً منكم عملُه» ط. مكة، ثم بيروت.

١٢ ـ الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بين يدي الساعة» ط. مصر.

من مؤلفاته في الفقه:

١ ـ «الاستخراج في أحكام الخراج» مطبوع.

٢ ـ «القواعد الفقهية» مطبوع.

٣ ـ «مسألة الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وقبل الصلاة».

٤ ـ «القول في تزويج أمهات أولاد الغياب».

٥ ـ «الكشف والبيان عن حقيقة النذور والأيمان».

من مؤلفاته في الوعظ والدعوة والإرشاد:

١ ـ «فضل علم السلف على علم الخلف» مطبوع.

٢ ـ «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» مطبوع. وهو مواعظ جليلة نافعة وفقاً لمناسبات الأيام في العام، وآخره «ذكر التوبة والحث عليها قبل الموت».

٣ ـ «صفة النار والتحذير من دار البوار» ولعله هو المطبوع بعنوان «التخويف من النار».

٤ ـ «أهوال يوم القيامة» مطبوع.

٥ ـ «أهوال القبور» مطبوع.

٦ ـ «الفرق بين النصح والتعيير» مطبوع.

ومن مؤلفاته في التراجم والتاريخ:

ـ «ذيل طبقات الحنابلة» مطبوع في مجلدين[1].

---

(١) للتوسع في مؤلفات الإمام انظر: الدرر الكامنة ٢/٤٢٩؛ وأنباء الغمر ١/٤٦٠؛ وشذرات الذهب ٦/٣٣٩؛ ولحظ الألحاظ، ص ١٨٠ ـ ١٨١؛ ومقدمة شرح علل الترمذي ١/٣٢ ـ ٣٥.

عزلة الإمام ابن رجب:

تورع الإمام الحافظ عن الاتصال بأولي الأمر، وآثر التفرغ لخدمة العلم، فأعرض عن التيارات الاجتماعية، ملتزماً للعلم والتعليم والوعظ والإرشاد والفتوى.

قال ابن العماد الحنبلي: **«وكان لا يعرف شيئاً من أمور الناس، ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات، وكان يسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين»**[1]. يعني بدمشق.

وقد فتح الله عليه بصفاء الإخلاص؛ وحسن التوجه إليه؛ والمواظبة على العبادة بنوافلها، والانقطاع عن الشواغل الدنيوية. وراح يفتي الناس بما استقر في قناعته أنه الراجح في شرع الله تعالى، كشأن كل إمام متمكن.. فأفتى ببعض فتاوي ابن تيمية رحمه الله تعالى، فهاج عليه المتعصبون على ابن تيمية، فدعاه ذلك إلى إعلان الرجوع عنها، فقلاه المتعصبون لابن تيمية، ونفروا منه.. فاضطر إلى اعتزال الفتوى، حتى انتقل إلى جوار الله تعالى.

قال الإمام ابن حجر: «وكان صاحب عبادة وتهجد. ونُقم عليه افتاؤه بمقالات ابن تيمية، ثم أظهر الرجوع عن ذلك، فناظره التيميون، فلم يكن مع هؤلاء ولا هؤلاء، وكان قد ترك الإفتاء بآخرة»[2].

أقــول: ومما يؤسف له أن بعض المتدينيين في زماننا هذا لا يرضون عن العالم العامل حتى يُتابعهم في جميع آرائهم في الأمور الخاصة والشؤون

---

(١) شذرات الذهب ٦/٣٣٩.

(٢) أنباء الغمر ١/٤٦٠؛ وانظر ترجمة الإمام ابن رجب في التقديم لكتابه «شرح علل الترمذي»، تحقيق الشقيق الدكتور نورالدين عتر، ص ٢٦ ــ ٣٦.

العامة، فإنْ علموا أنه تفوّه بغير رأيهم ولو بين أناس يحسبهم من خاصته..
أو امتنع عن اتباعهم في تصرفاتهم الهوج المدمرة التي يملونها على الآخرين من غير شورى ولا مناصحة، اندلعت بالسوء ألسنتهم، غيبة ونميمة، طعناً وتشهيراً..!! أتراهم نسوا أن هذا حرام بصريح القرآن والسنّة! أم تراهم نسوا أن العالم إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد! كما بين الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه. فكيف يطعنون فيه لأمر يثيبه الله عليه!؟ أتُراهم يقبلون من عالم نصحاً أو تنبيهاً على غلط، اللهم إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم!!؟؟ إذن هنالك أناس يتحمسون للإسلام ولا يعقلون مصلحة الإسلام! وحماقة المتهورين أعظم ضرراً من كيد الأعداء الألداء!! إنهم يقترفون بمطاعنهم حراماً نص الله على حرمته في القرآن العظيم وبأحاديث نبيه الكريم. وقد يزيد بعضهم على الطعن والتشهير.. فيأمر بمقاطعة بعض العلماء العاملين وإخوانهم والامتناع عن إلقاء السلام إليهم ورده، ولا ندري كيف يجترىء مسلم على ذلك!!؟.

ألم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وإذا حُييتم بتحية فَحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدوها إنّ الله كان على كل شيء حسيباً**﴾[1].

أم أنهم لم يقرؤوا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «دبَّ إليكم داءُ الأممِ الحسدُ والبغضاءُ، هي الحالقةُ. لا أقولُ تحلقُ الشعرَ، ولكنْ تحلقُ الدينَ. والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبِّئكم بما يُثْبِتُ ذاكم لكم؟ أفشوا السلامَ بينكم»[2].

رحم الله الإمام الحافظ ابن رجب وإخوانه العلماء العاملين في كل

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٢) رواه الترمذي عن عبدالله بن الزبير، كتاب صفة القيامة، باب سوء ذات البيْن وهي الحالقة ٤/٦٦٤، تحقيق إبراهيم عطوه عوض.

عصر، كم احتملوا وعانوا من قول كلمة الحق في سبيل الله وابتغاء ما عند الله! ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غُرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها * نعمَ أجر العاملين**﴾[1].

وفـــاة الإمام:

عاجلت المنيةُ الإمامَ الجليل الحـافظ الفقيه عبـدالرحمن بن رجب الحنبلي في عزلته، فقد توفاه الله تعالى سنة خمس وتسعين وسبعمائة وقد دعا إلى الله على بصيرة، وترك للأجيال الإسلامية مؤلفات عظيمة قيمة. لم يُقدّره أبناء عصره حق قدره! فهل يقدر شباب الإسلام الآن علماءهم المعاصرين حق قدرهم!!؟؟ وهل أخذت أمتنا من تاريخها عظات كافيات!!؟؟.



(١) سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

منهج الإمام ابن رجب
في تفسير سورة النصر

استهل الإمام تفسيره بذكر فضل السورة، وأنها تعدل «ربع القرآن» فأورد الحديث مختصراً، فالإمام بصدد إعداد رسالة موجزة فقط.

ثم عمد إلى تبيان مكان نزول السورة وزمانه؛ وترتيب نزولها بين السور، فهي مدنية بالاتفاق، ومن أواخر سور القرآن نزولاً. واستشهد لقوله بطرف من حديث الإمام مسلم: «عن عبدالله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: تعلمُ آخر سورة نزلتْ من القرآن، نزلتْ جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال: صدقت»[1].

لكن العلماء ــ كما ذكر الإمام ــ اختلفوا في تحديد وقت نزولها.. فأورد الإمام القول بأنها نزلت سنة وفاة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. واستدلوا له بحديثين ضعيفين، أوردهما الإمام وذكر سبب ضعف كل منهما.. ولعل هذا هو السر في تصديره مذهبهم بصيغة التضعيف: «فقيل».

ثم ذكر المذهب الثاني بأن سورة الفتح نزلت قبل فتح مكة، وعبر عن رجحان هذا المذهب في نظره، فقال: «وهذا هو الظاهر» واستدل له:

---

(١) صحيح الإمام مسلم، كتاب التفسير، حديث ٣٠٢٤، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٢٣١٨/٤.

١ ــ بدلالة اللغة العربية في إيراد «إذا» للمستقبل غالباً.

٢ ــ بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم قَرَن فيه بين مجيء نصر الله والفتح وبين مجيء أهل اليمن. والثابت أنهم قدموا سنة سبع عند فتح خيبر[1].

نهض الإمام بتفسير سورة الفتح جملة جملة. وأورد أهم أقوال الصحابة والتابعين والمفسرين واستشهد بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ورجح بالدليل ما ظهر له رجحانه.

ذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما بأن المراد بـ «الفتح» فتح مكة. وهو مذهب جمهور المفسرين من بعده. واستشهد له بحديث البخاري عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه، وبقول الإمام التابعي الجليل الحسن البصري رضي الله عنه. ثم أورد القول الثاني بأن «الفتح» يعم فتح مكة وما تم فتحه بعدها من مدن وحصون الحجاز واليمن. ثم رجح قول حبر الأمة بحديث أبي سعيد الخدري في المسند وحديث ابن عباس نفسه في الصحيحين وغيرهما.

وعلى هذا المنهج سار في تفسير جميع السورة معتمداً على المأثور واللغة واستخلاص التفسير الصحيح بالفهم الشرعي القويم.

يظهر للباحث بجلاء أن الإمام ابن رجب رحمه الله قد تحاشى ــ على عادة إخوانه المحدثين ــ أن يذكر طرف الحديث الموضوع في فضائل سور القرآن، سورة سورة. وقد ذكره بعض المفسرين كالواحدي والثعلبي وأصحاب مدرسة التفسير بالرأي، وفي مقدمتهم الزمخشري والبيضاوي ثم أبو السعود العمادي. وطرف الحديث الموضوع الخاص بسورة النصر: «روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ أعطي

(١) فتح الباري ٩٧/٨ ــ ١٠٠، وسيمر بك تبيان ذلك.

من الأجر كمن شهدَ مع محمد يوم فتح مكة»[1] والرسول براء من هذا الحديث، إنما كذبه عليه بعض الزهاد العباد[2].

وعمد الإمام إلى إفادة الباحث ووعظه، فتحدث عن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في العبادة والتسبيح والاستغفار. فأبان المراد من السورة عملياً في واقع الحياة. وهذا غرض عظيم لتفسير كلام الله تعالى.

وتحدث عن أهمية الاستغفار وفضائله وعن التوبة وبيّن الفارق بينهما. فأتم بذلك الغرض التوجيهي التربوي من تفسير السورة.

إن أظهر مزايا تفسير الإمام اعتناؤه البالغ بالمأثور، واستبانة التفسير الراجح بدلائله الشرعية. فإنه نهج منهج أئمة التفسير بالمأثور، كالطبري وابن كثير وغيرهما. واستوفى أهم جوانب تفسير السورة بأسلوب جميل واضح وترتيب منطقي، إذ ساق كلامه آخذاً بعضه برقاب بعض؛ متسلسلاً منسجماً متسقاً؛ بإيجاز لا خلل فيه.

جزى الله الإمام ابن رجب وجميع أئمة السلف عن الإسلام والمسلمين كل خير. ووفقنا لاقتفاء آثارهم بدأب وصدق وإخلاص إنه سميع مجيب.

* * *

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٢٩٥؛ وتفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٨/٤٠٨؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/٣٩٠.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: منهج النقد في علوم الحديث، للشقيق الدكتور نورالدين عتر، ص ٢٩٠، ط. أولى؛ والإتقان في علوم القرآن ٤/١١٥؛ والموضوعات لابن الجوزي ١/٢٤١ ــ ٢٤٢؛ وتدريب الراوي للسيوطي، ص ١٩٠؛ والوضع في الحديث للدكتور عمر حسن عثمان ١/٢٦٥ ــ ٢٦٦.

التعريف بمخطوطات «تفسير سورة النصر»

وقفت في قسم المخطوطات في جامعة الرياض على مصورات لثلاث مخطوطات من «تفسير سورة النصر» للإمام ابن رجب رحمة الله ورضوانه عليه. ثم وقفت على مصورة رابعة في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

النسخة الأولى (الأصل): ونرمز إليها بـ (أ):

وهي نسخة محفوظة، في مكتبة الرياض العامة السعودية، ضمن مجموع، رقمه (٨٦/٥٢٧) وفيه رسائل مختلفة لعدد من المؤلفين رحمة الله عليهم. وإن خطوط هذه الرسائل مختلفة أيضاً وبتواريخ متباعدة، بعضها تاريخ حديث. لكن مخطوطة ابن رجب هذه تمتاز بخط نسخي واضح جميل، مباين لخط الرسالة السابقة واللاحقة. وليس عليها تاريخ الخط ولا اسم الناسخ ويبدو أن خطها راجع إلى مطلع القرن التاسع الهجري.

وهي نسخة صحيحة جيدة، تمتاز بمقابلة عالية، فإنها نسخت من رسالة المؤلف التي خطها بيده، ثم قوبلت عليها وصححت. فقد وجدت في ختامها قول الناسخ: «آخر ما وُجد من خط المصنف، بلغ مقابلة على أصله».

وهي نسخة كاملة في ثماني صفحات، وقد اتخذتها أصلاً في التحقيق.

النسخة الثانية (ب):

وهي نسخة محفوظة في مكتبة جامعة الرياض، ضمن مجموع برقم ١٧٣٧/م وتقع في خمس صفحات ونصف. مطلعها: «قال الشيخ الأجل عبدالرحمن بن رجب رحمه الله وعفى عنه بمنّه وكرمه آمين. بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام على سورة النصر».

لكنها ناقصة الآخر، يليها بعض رسالة أخرى ناقصة من أولها، وهما من خط واحد مما يوهم أنهما رسالة واحدة لأول وهلة. وقد بلغت رسالتنا في آخرها إلى الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك..».

خط الرسالة نسخي واضح جميل، لا يمكن الجزم بتاريخه. وتبين لي بالمقابلة أنها نسخة مضبوطة إلى حد كبير.

النسخة الثالثة (ج):

نسخة ضمن مجموع يحتوي على عشرين رسالة، محفوظة في مكتبة جامعة الرياض برقم ١٦٣٩/١٤/م وعرفنا تاريخ النسخ من رسالة تليها كتبت بالخط نفسه، وفي آخرها: «تم نسخها في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٤٨».

والنسخة الثالثة خطها واضح مقروء، عليها تصحيحات تُظهر أنها قوبلت مقابلة حسنة. وتجد في الآيات بعض الكلمات بالخطِ الأحمر.

وهي رسالة تامة، مطلعها: «الكلام على سورة النصر، بسم الله الرحمن الرحيم».

وفي ختامها: «آخره، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين».

النسخة الرابعة (م):

هي نسخة ضمن مجموع رسائل متعددة للإمام ابن رجب نفسه رحمه الله، وجدت صورة هذا المجموع في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم (١٧). وهي صورة عن الأصل المخطوط في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٦٦٦). وتقع في أربع صفحات تجد في مطلع الصفحة الأولى بقية رسالة سابقة، وتجد في منتصف الصفحة الأخيرة مطلع تفسير سورة الإخلاص للإمام ابن رجب نفسه، والمجموع من القطع الكبير، تحوي الصفحة منه ٣٣ سطراً. وخط الرسالة واضح مقروء بتكلف بسبب ظروف التصوير فيما يبدو. والله أعلم.

وهي رسالة تامة ومطلعها على نحو مطلع غيرها. وانتهت بانتهاء آخر كلمة في الرسالة: «الاستغفار»، دون خاتمة خاصة بالنسخة.

ونلاحظ أن هذه النسخ الأربع يتباين بعضها عن بعضٍ تبايناً يدل على أن كل واحدة منها مأخوذة عن أصل مستقل، الأمر الذي يجعل المحقق أمام أربعة نصوص مستقلة الأسانيد ويقوي بعضها بعضاً.

ولا بد لي ههنا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى جميع المسؤولين في قسم المخطوطات بجامعة الرياض، إذْ تكرموا بمساعدتي ويسروا لي الحصول على صور النسخ المخطوطة.

كما أتقدم بوافر الشكر إلى أخي الكبير الأستاذ الفاضل الداعية الشيخ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، وإلى جميع إخوانه والمتعاونين معه لجهودهم الكريمة في طباعة ونشر الكتب الإسلامية القيمة، وفي نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى. وأشكر إدارة دار البشائر الإسلامية لحرصها القوي على نشر هذا الكتاب في طبعة ثانية مصححة أنيقة، وأسأل المولى الكريم أن يجزي بفضله وجوده جميع العاملين في خدمة دينه خير الجزاء، والله ذو الفضل العظيم.

منهج تحقيق الرسالة

١ ـ عولت على النسخة الأولى واتخذتها أصلاً، ولم أعدل عنها إلى غيرها إلا عند ظهور تصحيف جليّ فيها، وهذا نادر جداً. وقد أثبتُّ الفروق بين النسخ الأربع، لكني أعرضتُ عن إثبات نقص قوله: «رضي الله عنه» ونحوها في النسخة (م)، لكثرة ذلك فيها، واكتفيت بالتنبيه إليه ههنا.

٢ ـ وسعيت إلى تمييز جوانب بحث المصنف في تفسير سورة النصر، فأضفت عناوين مناسبة إليها، وأثبت كل عنوان بين نجمتين *...* وعزوت الآيات القرآنية إلى مواقعها في سورها، وخرجت الأحاديث النبوية.

٣ ـ عمدت في التعليق إلى إتمام فوائد الرسالة، وشرح ألفاظ منها، وفقاً لحاجة القارىء المعاصر، ولا ريب أن هذا يحقق غرض الإمام عبدالرحمن بن رجب، رحمة الله عليه. فإذا أمكن تحقيق ذلك من كلامه في كتاب آخر له، مثل «جامع العلوم والحكم» أخذت به ولم أعدل عنه إلى غيره.

ونظراً لإيجاز المؤلف في المخطوط، فإن التعليق الذي يحقق غرض المؤلف من رسالته، قد اقتضى مني تبيان بعض المسائل بشيء من التفصيل، خدمة للرسالة وإفادة للقارىء المعاصر.

وأرجو أن أكونَ بهذا الجهد المتواضع قد ساهمت في خدمة التراث الإسلامي للسلف الصالح، رحمهم الله تعالى، وأنْ أحظى بجزيل الثواب على قلة العمل، والله ذو الفضل العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الاجل عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى عنه بمنه
الكلام على سورة النصر جاء في حديث انها تعدل ربع القرآن
وهي مدنية بالاتفاق بمعنى انها نزلت بعد الهجرة الى المدينة وهي من
اواخر ما نزل وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال آخر سورة
نزلت من القرآن جميعا اذا جاء نصر الله والفتح واختلف في وقت
نزولها فقيل نزلت في السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفي مسند الامام احمد عن محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت اذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم نعيت الى نفسي بانه مقبوض في تلك السنة عطا هو
ابن السائب اختلط بآخره ويشهد له ما خرجه البزار في مسنده والبيهقي
من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار وصدقة بن بشار
عن ابن عمر قال نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى وهو في
اوسط ايام التشريق في حجة الوداع اذا جاء نصر الله والفتح فعرف انه الوداع
فامر براحلته القصوى فرحلت له ثم ركب فوقف للناس بالعقبة فحمد الله
واثنى عليه وذكر خطبة طويلة هذا اسناد ضعيف جدا وموسى بن عبيدة
قال احمد لا تحل الرواية عنه عندي عن قتادة قال عاش رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعدها سنتين وهذا يقتضي انها نزلت قبل الفتح وهذا هو الظاهر
لان قوله اذا جاء نصر الله والفتح يدل دلالة ظاهرة على ان الفتح لم يكن قد
جاء بعد لان اذا ظرف لما يستقبل من الزمان هذا هو المعروف في استعمالها

الصفحة الأولى من نسخة الأصل

عن عمرو ابن سلمة قال لما كان الفتح بادر كل قوم باسلامهم الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكانت الاحيا تتلوم باسلامها فتح مكة فيقولون دعوه
وقومه فان ظهر عليهم فهو نبي وعن الحسن قال لما فتح رسول الله صلى الله
عليه وسلم مكة قالت الاعراب اما اذا ظفر باهل مكة وقد اجارهم
الله من اصحاب الفيل فليس لكم به يدان فدخلوا في دين الله افواجا
قيل ان الفتح يعم مكة وغيرها من الحصون والمداين كالطايف وغيرها
من مدن الحجاز واليمن وغير ذلك وهو الذي ذكره ابن عطية وقوله
تعالى ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا المراد بالناس
العموم على قول الجمهور وعن مقاتل انهم اهل اليمن وفي مسند الامام
احمد من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن ابي البختري عن
ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه السورة
اذا جاء نصر الله والفتح قراها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها
فقال الناس حيز وانا واصحابي حيز وقال لا هجرة بعد الفتح ولكن
جهاد ونية وان مروان كذبه فصدق رافع ابن خديج وزيد ابن
ثابت ابا سعيد على ما قال وهذا يستدل به على ان المراد بالفتح فتح
مكة فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال يوم الفتح لا هجرة ولكن جهاد ونية وايضا فالفتح المطلق
هو فتح مكة كما في قوله لا يستوي من انفق من قبل الفتح وقاتل وهذا
قال الناس حيز وانا واصحابي حيز وروى النساي من طريق هلال
ابن خباب عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت هذه السورة اذا
جاء نصر الله والفتح الى اخر السورة قال نعيت لرسول الله نفسه حين
نزلت فاخذ في اشد ما كان اجتهادا في امر الاخرة وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد ذلك جاء الفتح وجاء نصر الله وجاء اهل اليمن
فقال رجل يا رسول الله وما اهل اليمن قال قوم رقيقة قلوبهم لينة قلوبهم

نموذج من النسخة (ب)

في عمومكم ذلك ثم كرر الإخبار بعلمه الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال إن
الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون والله أعلم وصلى الله على محمد وآله

الكلام على تفسير سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء في حديث أنها تعدل ربع القرآن وهي مدنية بالاتفاق بمعنى أنها نزلت بعد
الهجرة إلى المدينة وهي من أواخر ما نزل وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال آخر سورة
نزلت من القرآن جميعا إذا جاء نصر الله والفتح واختلف في وقت نزولها فقيل
نزلت في السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مسند الإمام أحمد
عن محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله
والفتح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيت إلي نفسي مقبوض في تلك
السنة عطاء هو ابن السائب اختلط بآخرة ويشهد له ما أخرجه البزار في
مسنده والبيهقي من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار و
صدقة بن يسار عن ابن عمر قال نزلت هذه السورة على رسول الله بمنى وهو
في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع إذا جاء نصر الله والفتح فعرف أنه
الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت له ثم ركب فوقف للناس بالعقبة
فحمد الله وأثنى عليه وذكر خطبة طويلة هذا إسناد ضعيف جدا وموسى
بن عبيدة قال أحمد لا تحل عندي الرواية عنه وعن قتادة قال عاش رسول
الله صلى الله عليه وسلم بعدها سنتين وهذا يقتضي أنها نزلت قبل الفتح
وهذا هو الظاهر لأن قوله إذا جاء نصر الله والفتح يدل دلالة ظاهرة
على أن الفتح لم يكن جاء بعد لأن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان هذا هو
المعروف في استعمالها وإن كان قد قيل إنها تجيء للماضي كما في قوله وإذا رأوا
تجارة أو لهوا انفضوا إليها وقوله ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت
لا أجد ما أحملكم عليه وقد أجيب عن ذلك بأن المراد بيان أن هذا شأنهم و
دأبهم لم يرد به الماضي بخصوصه وسنذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن ومجيء أهل اليمن كان قبيل حجة الوداع

الصفحة الأولى من النسخة (ج)

حين نزلت فأخذ في أشد ما كان اجتهادا في أمر الآخرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك جاء الفتح وجاء نصر الله وجاء أهل اليمن
فقال رجل يا رسول الله وما أهل اليمن قال قوم رقيقة قلوبهم لينة قلوبهم الإيمان يمان والحكمة يمانية والفقه يمان وروى ابن جرير من
طريق الحسين بن عيسى الحنفي عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إذ قال الله أكبر جاء
نصر الله والفتح جاء أهل اليمن نقية قلوبهم قيل يا رسول الله وما أهل اليمن قال قوم رقيقة قلوبهم لينة طباعهم الإيمان يمان والفقه يمان
والحكمة يمانية وروي أيضا من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلا وكذا هو في تفسير عبد الرزاق عن معمر عن رجل سمع عكرمة مرسلا
وهذا لا يدل على اختصاص أهل اليمن بالناس المذكورين في الآية والظاهر أنهم لا يخرجون من ذلك الناس عموما أهل اليمن قال ابن عبد البر توفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف منهم من قدم ومنهم من لم يقدم وقد
كان بعد من الردة ما كان ورجعوا كلهم إلى الدين قال ابن عطية المراد والله أعلم العرب عبدة الأوثان وأما نصارى بني تغلب
فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن أعطوا الجزية والأفواج جماعة إثر جماعة كما قال الله فتأتون أفواجا وفي المسند
من طريق الأوزاعي حدثني أبو عمار حدثني جار لجابر بن عبد الله قال قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله يسلم علي فجعلت أحدثه عن افتراق الناس
وما أحدثوا فجعل جابر يبكي ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا
وقوله فسبح بحمد ربك فيه قولان ذكرهما ابن الجوزي أحدهما أن المراد الصلاة نقله عن ابن عباس والثاني التسبيح المعروف وفي الباء
في بحمد قولان أحدهما أنها للمصاحبة فالحمد مضاف إلى المفعول أي سبحه حامدا له والمعنى اجمع بين تسبيحه وهو تنزيهه عما لا يليق به من
النقائص وبين تحميده وهو إثبات ما يليق به من المحامد والثاني أنها للاستعانة والحمد مضاف إلى الفاعل أي سبحه بما حمد به نفسه إذ ليس
كل تسبيح بمحمود كما أن تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات كما كان بشر المريسي يقول سبحان ربي الأسفل وقوله
واستغفره أي اطلب مغفرته والمغفرة هي وقاية شر الذنب لا مجرد ستره والفرق بين العفو والمغفرة أن العفو قد يكون بعد
عقوبة عليه بخلاف المغفرة فإنها لا تكون مع العقوبة وقوله إنه كان توابا إشارة إلى أنه سبحانه يقبل توبة المستغفرين المنيبين
إليه فهو ترغيب في الاستغفار وحث على التوبة وقد فهم طائفة من الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار
عند مجيء نصر الله والفتح شكرا لله على هذه النعمة فلهذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ثمان ركعات وكذلك صلى سعد يوم فتح المدائن
وكان يسمى صلاة الفتح وأما ابن عباس فقد فهم أن الله أعلمه بقرب أجله وانقضاء عمره وأمره أن يختم عمله
بذلك ويتهيأ للقاء الله والقدوم عليه فكان من قوله إنها إذا جاء نصر الله والفتح بحيث صارت مكة دار إسلام وكذلك جزيرة العرب
كلها ولم يبق بها كافر ودخل الناس في دين الله أفواجا وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وعلم أمته مناسكهم وعباداتهم وتركهم على
البيضاء ليلها كنهارها فبقاؤه في الدنيا حينئذ قليل الانتقال إلى الآخرة فإنه خير له من الدنيا ولهذا نزلت اليوم أكملت لكم دينكم بعرفة وعلم
الأمة مناسكهم وقال لعلي لا أراكم بعد عامي هذا وقال هل بلغت قالوا نعم فأشهد الله عليهم بذلك وودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع
وخير النبي صلى الله عليه وسلم بين الدنيا وبين لقاء ربه فكان آخر ما سمع منه اللهم الرفيق الأعلى ونظير هذا الفهم الذي فهمه عمر من السورة
ما فهمه أبو بكر من قول النبي صلى الله عليه وسلم إن عبدا خير بين لقاء ربه وبين الدنيا فاختار لقاء ربه وقد سبق من حديث ابن عباس
ما يدل على ذلك وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه
فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر إنه من قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا
ليريهم فقال ما تقولون في قول الله عز وجل إذا جاء نصر الله والفتح فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا
وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لي أكذلك تقول يا ابن عباس قلت لا قال فما تقول قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له
قال إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا فقال عمر بن الخطاب ما أعلم منها إلا ما تقول وقد
روت هذه القصة عن ابن عباس من طرق عدة وفي المسند عن أبي رزين عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح علم النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قد نعيت إليه نفسه وقد سبق حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه السورة أخذ في أشد ما كان اجتهادا في أمر الآخرة

الصفحة الثانية من النسخة (م)

تفسير سورة النصر

للإمام العالم العلامة الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي

ولد سنة ٧٣٦ﻫ - وتوفي سنة ٧٩٥ﻫ

رحمه الله تعالى

حققه وأكمل فوائده

الدكتور حسن ضياء الدين عتر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأجل عبدالرحمن بن رجب رحمه الله وعفى عنه بمنّه[1]:

الكلام على سورة[2] النصر[3]

جاء في حديث أنها تعدل «رُبُع القرآن»[4].

---

(١) في ب زيادة «وكرمه، آمين» ثم تلتها البسملة، وفي م زيادة: «وكرمه» فحسب.

(٢) في ج: «الكلام على تفسير سورة النصر».

(٣) وتسمى: «سورة إذا جاء»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنها تسمى: «سورة التوديع» لما فيها من الإيماء إلى دُنو أجل الرسول صلى الله عليه وسلم وتوديعه الدنيا بما فيها، وسترى الأحاديث الدالة على ذلك. (انظر: روح المعاني للآلوسي ٣٠/٢٥٥؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/٢٩٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، على حاشية الشهاب ٨/٤٠٨؛ وتفسير القرطبي ٢٠/٢٢٩).

(٤) روى الإمام الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجتَ يا فلانُ؟ قال: لا واللهِ يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج. قال: أليس معك ﴿قل هو الله أحد﴾؟ قال: بلى! قال: ثلث القرآن. قال: أليس معك ﴿إذا جاء نصر الله =

وهي مدنية بالاتفاق، بمعنى: أنها نزلت بعد الهجرة إلى المدينة[1]،

= والفتح﴾؟ قال: بلى! قال: ربع القرآن. قال: أليس معك ﴿قل يا أيها الكافرون﴾؟ قال: بلى! قال: ربع القرآن. قال: أليس معك ﴿إذا زلزلت الأرض﴾؟ قال: بلى! قال: ربع القرآن. قال: تَزَوَّجْ، تزوجْ».

قال الإمام الترمذي في جامعه: هذا حديث حسن.

(جامع الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص، وفي سورة ﴿إذا زلزلت﴾، برقم: ٢٨٩٥، ٥/١٦٦، ط. مصطفى البابي؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٨/٤٨٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٥). أقول: يبدو أن السورة حازت هذا الفضل العظيم لما فيها من الأمر بتنزيه الله تعالى ـ عما لا يليق ـ وتقديسه، وهو التسبيح، وللأمر فيها بحمده تعالى على كمالاته، وعلى نعمه التي لا تُحصى، ومننه التي لا تُستقصى. وأن ملاحظة المِنّة الإلهية من أعظم العبادات. ويُطمئنك إلى سلامة قولنا ما حكاه ابن الأثير عن العلماء في فضل سورة الإخلاص (جامع الأصول ٨/٤٨٦).

وإن الجهد المبذول في تلاوة السورة وتأملها يسير، لكن هذا الثواب الجليل لم يرتبه الله تعالى من باب الجزاء والعدل، وإنما رتبه المولى الكريم من باب الكرم والفضل!.

ولعل الإمام اكتفى بإيراد الحديث دون التفات إلى أقوال بعض علماء الحديث عنه؛ لأنه في فضائل الأعمال. وقد رأيت في هذا التعليق أن الإمام الترمذي رواه بسياق طويل، وقال: هذا حديث حسن.

(١) هذا التعريف للمدني من القرآن هو المعتمد لدى العلماء المحققين. فالقرآن النازل أثناء غزوات الرسول وأسفاره حتى بعد فتح مكة فهو قرآن مدني. وإن سورة النصر مدنية، وآيها ثلاث بالاتفاق. قال الإمام القرطبي عنها: «وهي مدنية بإجماع»، وذلك بناء على تعريف المدني المعتمد لدى المحققين، والذي عوّل عليه ابن رجب رحمه الله.

وفي هذه السورة إشارة إلى زوال ملة الأصنام وظهور دين الله عزوجل على =

وهي من أواخر[1] ما نزل. وفي صحيح مسلم عن ابن [2]عباس رضي الله عنهما[2] قال: «آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾[3] »[4].

= أحسن حال. وهذا وجه مناسبتها لسورة «الكافرون» قبلها. (انظر: روح المعاني ٢٩٥/٣٠؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٢٩/٢٠).

(١) في ب، م: «من آخر».

(٢-٢) في ب، م: «عن جابر» والصواب كما أثبتنا أعلاه، وسيأتيك نص الحديث.

(٣) قوله: «والفتح» ليس في م.

(٤) قال الإمام مسلم في صحيحه:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وهارون بن عبدالله وعبد بن حُميد، قال عبد: أخبرنا، وقال الآخران: حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا أبو عميس عن عبدالمجيد بن سهيل، عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: تعلمُ، وقال هارون: تدري آخر سورةٍ نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، قال: صدقت. وفي رواية مسلم عن ابن أبي شيبة: تعلم أيُّ سورة، ولم يقل: آخر.

(صحيح مسلم، كتاب التفسير، حديث ٣٠٢٤، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٢٣١٨/٤).

فالحديث رواه الإمام مسلم وابن أبي شيبة والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس. وفي سنن النسائي عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة قال: «قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة! أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، قال: صدقت».

أقول: لم أقف على رواية النسائي في المطبوع، ولعلها في السنن الكبرى، وهو مخطوط. وظاهر أن رواية الإمام مسلم أدقُّ تعبيراً وأحكم دلالة. لذا عوّل عليها الإمام القرطبي في تفسيره إذ قال عن سورة النصر: «وهي آخر سورة نزلتْ جميعاً، قاله ابن عباس في صحيح مسلم». =

= ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث الشيخين عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت «براءة». فإنها نزلت متفرقة نجوماً، فهي آخر سورة من ناحية تنزيل معظمها آخراً، لا جميعها، فإن غالبها نزل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن سورة النصر آخر سورة نزلت دفعة واحدة، فهي أسبق تنزيلاً من اكتمال تنزيل سورة التوبة. ولم تنزل بعدها سورة كاملة في نجم واحد.

قال الإمام ابن حجر: «وقد أخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها ـ سورة النصر ـ آخر سورة نزلت من القرآن، وقد تقدم في تفسير براءة أنها آخر سورة نزلت. والجمع بينهما أن آخرية سورة النصر باعتبار نزولها كاملة، بخلاف براءة».

(فتح الباري ٣١٦/٨ و٧٣٤؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٢٩/٢٠؛ وتفسير ابن كثير ٥٢٩/٨ و٥٣١؛ وحاشية الشهاب على البيضاوي ٤٠٦/٨؛ وروح المعاني ٢٢٥/٣٠؛ والدر المنثور ٤٠٧/٦).

وقد اشتهر بين عامة الناس أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (سورة المائدة: الآية ٣). والتحقيق أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يُظلمون﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٨١). أخرج النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر شيء نزل من القرآن: ﴿واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله..﴾ الآية».

أقول: لعله في السنن الكبرى، وهو مخطوط، إذ لم أقف عليه في المطبوع.

وأخرج ابن مردويه وابن جرير نحوه عن ابن عباس بلفظ: «آخر آية نزلت..»، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: «آخر ما نزل من القرآن كله ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله..﴾ الآية، وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول»، وأخرج ابن جرير مثله عن ابن جريج. (جامع البيان عن تأويل=

* وقت نزولها[1] *

واختُلف في وقت نزولها، فقيل: نزلت في السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي مسند الإمام أحمد عن محمد بن فُضيل[2]، عن عطاء[3]، عن سعيد بن جبير[4]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ قال رسول الله صلى

= آي القرآن للطبري ٦/٤١، ط. دار المعارف بمصر؛ والإتقان ١/٧٧ ــ ٧٨؛ والبرهان ١/٢٠٩).

إذن كيف رجحنا أنّ آخر سورة نزلت هي سورة النصر؟.

نقول: لا تنافي بين القولين، فإن آخر آية نزلت منفردة مستقلة هي آية البقرة الماضية.

وإن آخر سورة نزلت دفعة واحدة بكمالها وتمامها هي سورة النصر.

ويكون الترتيب الزمني لتنزيل هذه النصوص الثلاثة أن سورة النصر أسبق نزولاً، ثم النجوم الأخيرة من سورة التوبة ثم آية البقرة المذكورة آنفاً.

(١) هذا العنوان إضافة أدرجناه أثناء التحقيق، وميزناه بنجمتين، ودأبنا على ذلك، في أمثاله، فانتبه.

(٢) محمد بن فُضيل بن غزوان الضبّـي الكوفي، ثقة، توفي سنة ١٩٥هـ. (ميزان الاعتدال ٤/٩؛ وتهذيب التهذيب ٩/٤٠٥).

(٣) عطاء بن السائب الثقفي الكوفي أحد الأئمة، اختلط بآخره. مات سنة ١٣٦هـ. (خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي ٢/٢٣٠).

(٤) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي، ثقة ثبت أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥هـ. (طبقات ابن سعد ٦/٢٥٦؛ وتذكرة الحفاظ ١/٧٦؛ وتهذيب التهذيب ٤/١١).

الله عليه وسلم: «نُعيتْ إليَّ نفسي، بأني[1] مقبوض في تلك السنة»[2].

عطاء هو ابن السائب، اختلط بآخره[3].

---

(١) قوله: «بأني» ليس في ب، م، وموضعه في ج بياض. وفي مسند الإمام أحمد: «بأنه»، ورواه الطبري عن أبي كريب وابن وكيع عن ابن فضيل بإسناده بلفظ: «كأني».

(٢) والمراد بالنعي هنا إخباره صلى الله عليه وسلم بقرب موته، وإنما حصل ذلك بتنزيل سورة النصر عليه، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب وابن عباس، وسيمر بك حديث البخاري. أما الحديث أعلاه فقد ذكره الإمام ابن كثير، وقال: «تفرد به أحمد»، وأورده السيوطيّ ونسبه إلى الإمام أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس.

(تفسير ابن كثير ٨/٥٣٠؛ والدر المنثور ٦/٤٩٠٦؛ وانظر: مسند الإمام أحمد، بتحقيق أحمد شاكر، حديث ١٨٧٣، ٣/٢٦٥؛ وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٣٠/٣٣٤، ط. م. البابي الحلبي).

(٣) قال أحمد شاكر تعليقاً على الحديث في المسند: «إسناده صحيح، عطاء هو ابن السائب» ولم يذكر اختلاطه. (المسند ٣/٢٦٥).

قال ابن حجر: «عطاء بن السائب بن مالك.. قال الحميدي: عن ابن عيينة: كنتُ سمعت من عطاء بن السائب قديماً ثم قدم علينا قدمة فسمعته يحدث ببعض ما كنت سمعت، فخلط فيه، فاتقيته واعتزلته... قال ابن سعد وغيره: مات سنة ١٣٧ هـ».

«وقال أبو حاتم: كان محله الصدق، قبل أن يختلط، صالح مستقيم الحديث ثم بآخره تغير حفظه.. وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب، رفع أشياء كان يرويها عن التابعين ورفعها إلى الصحابة.

«وقال النسائي: ثقة في حديثه القديم إلا أنه تغير». (تهذيب التهذيب ٧/٢٠٣ ـ ٢٠٦؛ وانظر: الكواكب النيرات لابن الكيال، ص ٣١٩ ـ ٣٣٤).

ويشهد له ما خرّجه البزار في مسنده والبيهقي من حديث موسى بن عبيدة، عن عبدالله بن دينار[١]، وصدقة بن يسار[٢]، عن ابن عمر قال: نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى، وهو في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصوى، فرُحلتْ له، ثم ركب، فوقف للناس بالعقبة، فحمد الله وأثنى عليه.. وذكر خطبة طويلة[٣].

هذا إسنادٌ ضعيف جداً، وموسى بن عبيدة قال أحمد: «لا تحل[٤] الرواية عندي عنه»[٥].

---

(١) عبدالله بن دينار العدوي المدني، مولى ابن عمر، ثقة، توفي سنة ١٢٧هـ. (التقريب ١/٤١٣).

(٢) في النسخ المخطوطة الأربع: «صدقة بن بشار»، والظاهر أنه كما في كتب السنة والتراجم: «صدقة بن يسار الجزري»، وثقه الإمام أحمد والنسائي وأبو داود وابن معين وغيرهم.
(انظر: التاريخ الكبير للبخاري ٢/٢٩٣؛ والجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ٦/٣٣٢ ــ ٣٣٤؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/٤١٩، تصوير بيروت).

(٣) أخرجه البزار والبيهقي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن مردويه (الدر المنثور ٦/٤٠٦؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٥) وأورده الإمام ابن كثير وفيه: «فأمر براحلته القصواء.. فذكر خطبته المشهورة». (تفسير القرآن العظيم ٨/٥٢٩).

(٤) في م، ج: «لا تحل عندي..».

(٥) قال الذهبي: «موسى بن عبيدة الرّبذي، مشهور ضعّفوه» وذكر قول الإمام أحمد فيه. (المغني في الضعفاء ٢/٦٨٥؛ وميزان الاعتدال ٤/٢١٣؛ وكتاب المجروحين لابن حبان ٢/٢٣٤). =

وعن قتادة[1] قال: «عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها سنتين»[2].

= أقول: إن حكم الإمام ابن رجب على سند الحديث واستشهاده بقول الإمام أحمد بن حنبل يحول دون الاحتجاج به، ما لم نجد له سنداً صحيحاً عند غير البزار والبيهقي.

وقد ضعّف الإمام ابن حجر أيضاً هذا الحديث وإن كان الزمخشري قد عول عليه في الكشاف. قال الإمام ابن حجر: «وسُئلت عن قول الكشاف: إن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام التشريق فكيف صدّرت بـ «إذا» الدالة على الاستقبال؟. فأجبت بضعف ما نقله، وعلى تقدير صحته فالشرط لم يكتمل بالفتح، لأن مجيء الناس أفواجاً لم يكن كمل، فبقية الشرط مستقبل». (فتح الباري ٨/٧٣٦).

وأورد الآلوسي تضعيف الإمام ابن رجب للحديث وقول الإمام أحمد في راويه، ثم قال: «وعليه إن صح يكون نزولها قريباً جداً من زمان وفاته صلى الله عليه وسلم، فإن ما بين حجة الوداع وإجابته عليه الصلاة والسلام داعي الحق ثلاثة أشهر ونيف». (روح المعاني ٣٠/٢٥٥).

قال أبو حيان الأندلسي: «قال ابن عمر: فنزلت في أوسط أيام التشريق بمنى في حجة الوداع، وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها صلى الله عليه وسلم». (البحر المحيط ٨/٥٢٣).

قال ابن سيد الناس «واختلف أهل العلم في اليوم الذي توفي فيه، بعد اتفاقهم على أنه يوم الاثنين في شهر ربيع الأول.. قال الطبراني: يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول». (عيون الأثر ٢/٣٣٨).

(١) قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ثقة، ثبت، توفي سنة بضع عشرة ومائة. (تذكرة الحفاظ ١/١٢٣؛ وتهذيب التهذيب ٨/٣٥١).

(٢) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة. (تفسير الطبري ٣٠/٢١٧؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٥).

=

وهذا يقتضي أنها نزلت قبل الفتح، وهذا هو الظاهر، لأن قوله: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ يدل دلالة ظاهرة على أن الفتح لم يكن قد[1] جاء بعد[2]، لأن «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان، هذا هو المعروف

= أقول: إنّ الاستدلال بقول قتادة على نزول سورة النصر قبل فتح مكة فيه احتراز، فهو محمول على إلغاء كسر الأشهر الزائدة على السنتين. وإلغاء الكسر في الأعداد معهود في تخاطب العرب. ولا يخفى عليك أن فتح مكة تم في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة، وأن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في السنة الحادية عشرة في أوائل ربيع الأول. (انظر: فتح الباري ٨/١٥٠ ـ ١٥١؛ وعيون الأثر ٢/١٦٣ و ٣٣٥).

(١) قوله: «قد» ليس في ج.

(٢) تم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وحسب قول ابن شهاب: «لثلاث عشرة بقيت من رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة».
وردت روايات تفيد خروجه صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من رمضان، لعشر، لثنتي عشرة، لست عشرة، وغير ذلك. (روح المعاني ٣٠/٢٥٥؛ عيون الأثر ٢/١٦٧).
وقال أبو حيان الأندلسي عن سورة النصر: «هذه مدنية، نزلت منصرفه من غزوة خيبر، وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزولها سنتين».
وتعقبه الألوسي بقوله: «وأنت تعلم أن غزوة خيبر كانت في سنة سبع أواخر المحرم، فيكون ما في البَيْن أكثر من سنتين».
أقول: هناك روايات أخرى في تاريخ نزول سورة النصر، ذكرها الإمام القرطبي وغيره. ويبدو أن الإمام المحدث ابن رجب رحمه الله لم يورد تلك الروايات لضعفها عنده. لكنه رجح أنها نزلت قبل الفتح، وهو الظاهر، والله أعلم. (انظر: البحر المحيط ٨/٥٢٣؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٥؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٢٣٢ و٢٣٣؛ وحاشية الشهاب ٨/٤٠٦؛ وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٣٠/٢١٧).

في استعمالها[1].

وإن كان قد قيل: إنها تجيء للماضي، كما[2] في قوله: ﴿**وإذا**[2] **رأوْا تجارةً أو لَهْواً انفضوا إليها**..﴾[3] وقوله: ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوْكَ لِتحملَهم**[4]...﴾ الآية[5].

وقد أُجيب عن ذلك بأنه أريد: أن هذا شأنُهم ودأبهم، لم[6] يُرَد به الماضي بخصوصه.

---

(١) قال الإمام الزمخشري: «إذا ـ منصوب بسبِّحْ، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة». (الكشاف ٤/٢٩٣).

(٢ـ٢) في ب، م: كقوله: «إذا».

(٣) تمام الآية: ﴿قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ سورة الجمعة: الآية ١١.

(٤) أورد في نسخة الأصل طرف الآية أعلاه، وتمامها: ﴿قلتَ لا أجدُ ما أحملكم عليه تولوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حَزَناً أنْ لا يجدوا ما ينفقون﴾ سورة التوبة: الآية ٩٢.

(٥) رجح القرطبي أن «إذا» جاءت هنا للدلالة على الماضي، فقال: «و (إذا) بمعنى (قد) أي قد جاء نصر الله، لأن نزولها بعد الفتح».
وذهب غيره إلى أنّ معناها هنا (إذْ) التي ترد مع الماضي، وقد وردتْ بهذا المعنى كثيراً في القرآن العظيم. وتكون عندئذ (إذا) الظرفية متعلقة بعامل محذوف تقديره: «إذا جاء نصر الله والفتح ـ كَمُلَ الأمرُ أو تمَّت النعمة ـ فسبح بحمد ربك..».
(الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦).

(٦) في ج: «لما يراد».

وسنذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد(١ نزول هذه السورة قال١): «جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن»، ومجيء أهل اليمن كان قبل(٢) حجة الوداع(٣).

قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾

(١ـ١) في ب، م: «قال بعد نزول هذه الآية».

(٢) في ج: «في» وأثبتها الناسخ تصحيحاً على جانبي الصفحة.

(٣) **أقول**: يتضح لك من هذا أن الإمام ابن رجب، رحمة الله عليه، ذهب إلى ترجيح نزول سورة النصر قبل فتح مكة، وهو مذهب جمهور المفسرين.
واستدل على ذلك بدلالة اللغة في استعمال «إذا» للمستقبل عادة، وهذا ما عوّل عليه إمام اللغة الزمخشري في كشافه، كما استدل بهذا الحديث أعلاه، وقد رواه الإمام النسائي، وسيأتيك بتمامه. وروى الطبري والطبراني حديثين نحوه.
وتعمد المصنف رحمه الله تعالى ـ في مطلع رسالته هذه ـ أن يُبرز ضعف المذهب القائل بنزول السورة بعد الفتح، بالكشف عن ضعف استدلالهم باللغة والمأثور.
وإن نزول سورة النصر قبل الفتح فيه إخبار عن غيب المستقبل، وهو أمر لا يعلمه إلا الله. فهو من براهين اليقين بنبوة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. وقد أفاد الإمام الزمخشري والنسفي والآلوسي وغيرهم أن إخبار السورة بفتح مكة قبل وقوعه من «أعلام النبوة». وقد عرضت بتوسع في أوجه إعجاز القرآن إخبار القرآن عن غيب المستقبل، وتحققها كما أنبأ وأخبر، ودلالات ذلك على نبوة سيد المرسلين وإلهية رسالته. (انظر: بيّنات المعجزة الخالدة، ص ٣٣٠ ـ ٣٥٨).
(وانظر: أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٨/٤٠٦؛ ومدارك التنزيل للنسفي ٤/٣٨١؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/٢٨٩؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦؛ والكشاف للزمخشري ٤/٢٩٤ ـ ٢٩٥).

أما ﴿نصر الله﴾: فهو معونته على الأعداء، حتى غلب[1] صلى الله عليه وسلم العرب كلَّهم، واستولى عليهم من قريش وهوازن وغيرهم. وذكر النقَّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النصر: هو صلح الحديبية[2].

---

(١) في م: «غلب النبي . .».

(٢) لم أقف على هذه الرواية فيما رجعت إليه من مصادر، والظاهر أنها ضعيفة، حتى أن الإمام ابن رجب لم يتكلف توجيهها.

والنَقَّاش هو أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي المعروف بالنقاش، ضعيف، توفي سنة ٣٥١هـ. له كتاب في التفسير واسمه «شفاء الصدور في تفسير القرآن الكريم». (كشف الظنون ٢/١٠٥؛ وطبقات المفسرين للداودي ٢/١٣١ ـ ١٣٢، ط. وهبه بمصر؛ ومعجم المؤلفين ٩/٢١٤).

قال الإمام القرطبي: «النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيثُ الأرضَ، إذا أعان على نباتها من قحطها. . يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً، أي أعانه».

أقول: فالراجح ما ذهب إليه الإمام الحافظ ابن رجب رحمه الله، وهو مذهب جمهور المفسرين. فإن نصر الله: هو معونته وتأييده لرسوله وللمؤمنين حتى غلبوا جميع خصومهم في جزيرة العرب، فليس خاصاً بصلح الحديبية، إنما هو مستمر محقق للفتح نفسه.

قال الإمام الآلوسي: « ﴿إذا جاء نصر الله﴾ أي إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوك. وهذا معنى «النصر» المعدّى بـ«على»، وفُسّر به لأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿والفتح﴾ ».

ثم تَعرَّض لتفسير ﴿إذا جاء﴾ فقال: «فالمراد بالمجيء الحصولُ، وهو حقيقة فيه على ما يقتضيه ظاهر كلام الراغب، وقال القاضي: مجاز». وقال الإمام أبو السعود العمادي: «والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء، للإيذان =

* الفتح فتح مكة *

وأما ﴿الفتح﴾ فقيل: هو فتح مكة بخصوصها. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[1]، لأن العرب كانت تنتظر بإسلامها ظهور النبي

= بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام، وأنهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب».

وإنما سبقه الإمام القاضي البيضاوي إلى نحو هذا البيان وزاد عليه: «وقد قرب النصر من وقته، فكن مترقباً لوروده، مستعداً لشكره».

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ وأنوار التنزيل ٨/٤٠٦؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/٢٨٩؛ ومدارك التنزيل للنسفي ٤/٣٨١).

(١) قال الإمام الزمخشري: «فإن قلتَ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عُطف عليه؟ قلتُ: والنصر الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه نصرَ اللهُ الأرضَ: غاثها، والفتحُ: فتحُ البلاد. والمعنى: نصرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرب أوعلى قريش وفتح مكة». (الكشاف للزمخشري ٤/٢٩٣ ـ ٢٩٤).

قال الإمام محمد الأنصاري القرطبي: «وأما الفتح فهو فتح مكة، عن الحسن ومجاهد وغيرهما». وقال الإمام عمادالدين بن كثير: «والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً».

وقال العلامة محمود الآلوسي: «وأما الفتح فقد أخرج جماعة عنه ـ عن ابن عباس ـ وعن عائشة أن المراد به فتح مكة. وروى ذلك عن مجاهد وغيره وصححه الجمهور».

أقول: يدل على صحة قول الجمهور، أن المراد بالفتح فتح مكة، حديث الإمام البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة وقول الإمام الحسن البصري التابعي الشهير، وهو قول مأثور لا يتأتى الاجتهاد في مورده، كما يدل عليه حديث الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري، وحديث الصحيحين عن =

صلى الله عليه وسلم على مكة[1]. وفي صحيح البخاري عن عمرو بن سَلِمة[2] قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الأحياءُ تَتلوَّم[3] بإسلامها فتح مكة، فيقولون[4]: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي..»[5].

وعن الحسن[6] قال: «لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، قالت الأعراب[7]: أما إذْ[8] ظفر بأهل مكة، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان. فدخلوا في دين الله أفواجاً»[9].

= ابن عباس، وغير ذلك، وقد أوردها الإمام ابن رجب في هذه الرسالة مورد الاستدلال، فتأمل.

(الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠؛ وتفسير ابن كثير ٨/٥٣٣؛ «روح المعاني ٣٠/٢٥٥).

(١) قوله: «على مكة» ليس في ج.

(٢) عمرو بن سَلِمة بن قيس الجرمي، ضبطه ابن حجر بكسر اللام، وهو صحابي صغير، نزيل البصرة. (الاستيعاب ٢/٥٤٤؛ والإصابة ٢/٥٤١).

(٣) «تتلوم»: تنتظر، وفي الصحيح: تَلَوَّمُ.

(٤) في م: «فيقول».

(٥) رواه البخاري بطوله، كتاب المغازي، باب رقم ٥٣، بعد باب مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة زمن الفتح، حديث رقم: ٤٣٠٢، فتح الباري ٨/٢٢، ط. السلفية.

(٦) الحسن البصري، تأتيك ترجمته في هذا الكتاب، ص ٨٣.

(٧) في ج: «العرب».

(٨) في ب، م: «إذا»، وفي ج: «إذا ظفر محمد».

(٩) انظر: روح المعاني ٣٠/٢٥٦.

وقيل: إنَّ الفتحَ يعمُ مكة وغيرها، مما (١فُتح بعدها١) من الحصون والمدائن(٢) كالطائف وغيرها من مدن الحجاز واليمن وغير ذلك، وهو الذي ذكره ابن عطية(٣).

وقوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾:

(١ـ١) ليس في ب، م.

(٢) قوله: «المدائن» بالهمزة في الأصل، وفي ب وج بالياء.

(٣) قال الإمام القرطبي: «وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: هو فتح المدائن والقصور». وقال الإمام الآلوسي: «قيل: المراد جنس نصر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وجنس الفتح، فيعم ما كان في أمر مكة، زادها الله تعالى شرفاً، وغيره».

قلت: هذا التفسير لـ «الفتح» مرجوح، رده المحققون من أهل التفسير. لاحظ تصديره عند ابن رجب والآلوسي وغيرهما بكلمة «قيل» فالصواب أن المراد بـ «الفتح» فتح مكة.

(انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦؛ وأنوار التنزيل ٨/٤٠٦؛ ومدارك التنزيل ٤/٣٨١؛ وإرشاد العقل السليم ٥/٢٨٩).

أقول: والحق أن هذا الفتح علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى حمى بيته من أهل الضلالة والبغي وهم أصحاب الفيل. يستفاد من ذلك من قول الحسن سابقاً ومن حديث عمرو بن سلمة إذ ورد فيه: «... وكانت العرب تلوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم...».

وقد استدل العلامة ابن كثير بالفتح على نبوته صلى الله عليه وسلم، وساق استدلاله تمهيداً لحديث عمرو بن سلمة.

(صحيح البخاري، كتاب المغازي، فتح الباري ٨/٢٢؛ وتفسير ابن كثير ٨/٥٣٣).

المراد بالناس: العموم، على قول الجمهور، وعن مقاتل: أنهم أهل اليمن، وفي مسند الإمام أحمد من طريق شعبة[1]، عن عمرو بن مرة[2]، عن أبـي البختري[3]، عن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: لما نزلت هذه السورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها فقال: «الناس حَيِّز[4]، وأنا وأصحابـي حَيِّز»، وقال: «لا هجرةَ بعدَ الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونية»، وأنّ مروان كذبه فصدَّق[5] رافعُ بنُ خديج وزيد بن ثابت أبا سعيد على ما قال[6].

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي البصري، ثقة حافظ متقن، توفي سنة ١٦٠هـ. (تهذيب التهذيب ٤/٣٣٨).

(٢) عمرو بن مُرة بن عبدالله بن طارق الجملي، ثقة عابد، توفي ١١٨ أو قبلها. (تهذيب التهذيب ٨/١٠٢).

(٣) أبو البختري هو سعيد بن فيروز الطائي الكوفي، ثقة ثبت، توفي ٨٣هـ. (تهذيب التهذيب ٤/٧٢).

(٤) «حيز»: فئة.

(٥) في الأصل وح: «فصدقه».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسند زيد بن ثابت ٥/١٨٧، وأخرجه في مسند أبـي سعيد الخدري ٣/٢٢، بزيادة فَصَّلت الحادثة مع مروان هكذا: «فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت وهما قاعدان معه على السرير. فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكنّ هذا يخاف أن تَنْزِعه عن عِرافة قومه، وهذا يخشى أنْ تَنْزِعه عن الصدقة. فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك قالوا: صدق».
أخرجه الإمام أحمد وابن أبـي شيبة والطيالسي والطبراني والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في الدلائل. انظر: الدر المنثور ٦/٤٠٦؛ وتفسير ابن =

وهذا[1] يستدل به على أنَّ المراد بالفتح فتح مكة، فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: «لا هجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونية»[2].

= كثير ٨/٥٣١؛ وفيه: قالا صدق.

والعريفُ: هو القائمُ في طائفةٍ من الناس بأمر سياستهم وحفظ أمورهم، وسُمِّي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يُعرِّفَ بها مَنْ فوقه عند الاحتياج. (فتح الباري ١٣/١٦٩).

قال الإمام ابن كثير تعقيباً على الحديث: «تفرد به أحمد، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر»، ثم استدل لذلك بحديث ابن عباس الآتي. (تفسير ابن كثير ٨/٥٣١).

(١) قوله: «وهذا» يعني حديث أبي سعيد وقد مرَّ ذكره.

(٢) رواه الجماعة كلهم إلا ابن ماجه.

أخرجه الإمام البخاري بألفاظ قريبة في روايات عن مجاشع بن مسعود وعبدالله بن عمر وعائشة رضي الله عنها، كتاب المغازي، بعد باب مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة زمن الفتح، فتح الباري ٨/٢٥.

وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الإمارة، باب المبايعة وفتح مكة، عن عائشة بلفظ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب الإمارة عن ابن عباس بزيادة: «وإذا استنفرتم فانفروا» ١٤٨٨/٣، رقم الحديث: ١٨٦٤.

وأخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح، فتح الباري ١٨٩/٦، عن ابن عباس بنفس الزيادة، مما يوضح أن ابن رجب قد أورده مختصراً.

ورواه الإمام أحمد في مسند عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وقال الأستاذ أحمد شاكر: «إسناده صحيح». (المسند ١٣٦/٥، ط. مصر).

أقول: وهكذا تجد الأحاديث تدل على أن «الفتح» إذا أُطلق كانَ المرادُ به فتح =

= مكة، فهو المراد في سورة النصر، ما لم يَرِدْ دليل صريح أقوى، ولكن لم يرد أي دليل، فتحقق بذلك تفسير الحافظ ابن رجب رحمه الله. وإن الثواب العظيم الذي يحصل بالهجرة، كما أفادت الآيات والأحاديث، قد امتنع تحصيله بعد فتح مكة. وهذا الحديثُ يعاضدُ حديثَ أبي سعيد الخدري مع مروان، وتشهد له أحاديث أخرى، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عطاءِ بن أبي رباح قال: «زُرْت عائشةَ مع عبيد بن عمير الليثي، فسألناها عن الهجرة فقالت: لا هجرةَ اليومَ. كان المؤمنون يفرُّ أحدُهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يفتن. أما اليوم فقد أظهرَ الله الإسلام. فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية».

رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، بـاب هجرة النبي، فتح الباري ٢٢٦/٧.

هذا شرح حصيف من عائشة رضي الله عنها لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويعاضده حديث البخاري عن مجاشع بن مسعود: «انطلقت بأبي مَعْبدٍ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه على الهجرة، قال: مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد. فلقيت أبا معبد فسألته، فقال: صدق مجاشع».

أبو معبد: هو مجالد بن مسعود أخو مجاشع، كذا أفادت الروايات الأخرى في البخاري. وروى الحديث الإمام مسلم بلفظ: «إن الهجرة قد مضت لأهلها...». وفي رواية أخرى للبخاري: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها». (انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بعد باب مقام النبي بمكة زمن الفتح، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة وفتح مكة ١٤٨٧/٣، رقم الحديث: ١٨٦٣).

وقد أحصى الإمام ابن حجر مواطن روايات الحديث في صحيح البخاري. (انظر: فتح الباري ١٩٠/٦؛ وانظر فيه أيضاً ٢٥/٨ وما بعدها؛ وانظر: فيض القدير للمناوي ٤٣٨/٦).

وأيضاً فالفتح المطلق هو فتح مكة، كما في قوله: ﴿**لا يستوي منكم مَنْ أنْفَقَ من قبلِ الفتحِ وقاتلَ**﴾[1]، ولهذا قال: «الناس حَيِّز وأنا وأصحابي حيّز»[2].

وروى النسائي من طريق هلال بن خَبَّاب[3]، عن عكرمة[3]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت[4] ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إلى آخر السورة، قال: نُعيتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسُهُ حين أُنزلتْ[5]، فأخذَ في[6] أشد ما كان اجتهاداً في أمرِ الآخرة».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: «جاء الفتحُ وجاءَ نصرُ الله وجاءَ أهلُ اليمن»، فقال رجل: يا رسولَ الله! وما أهلُ اليمن؟ قال: «قوم رقيقةٌ قلوبُهم، لينة [7] قلوبهم، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان[7]»[8].

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والطيالسي والطبراني والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي، وقد مر بك بتمامه.

(٣) تقدمت ترجمتهما، ص ١٣.

(٤) في ب، م زيادة: «هذه السورة».

(٥) في ب، م: «نزلت».

(٦) في ج: «فأخذ بأشد».

(٧-٧) في ج: «لينة ألسنتهم، الإيمان يماني، والحكمة يمانية، والفقه يماني».

(٨) لم أقف على الحديث في مظانه في كتاب سنن النسائي المطبوع، وهو السنن الصغرى. ولعله في السنن الكبرى وهو مخطوط. ويبدو أن النص بشطريه حديث واحد، فقد أخرجه الدارمي من نفس الطريق أيضاً بزيادة عبارات، (انظر: مقدمة سنن الدارمي ١/٣٧، ط. دار إحياء السنة المحمدية). =

وروى ابن جرير من طريق الحسين بن عيسى الحنفي[1]، عن معمر[2]، عن الزهري[3]، عن أبي حازم[4]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إذْ[5] قال: «الله أكبرُ[6]، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن»، قيل: يا رسول الله! وما أهل اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لَينةٌ طاعتُهم[7]، الإيمانُ يمان[8]، والفقهُ يمانٍ[8]، والحكمةُ يمانية[8]».

= وأخرج شطره الأول مستقلاً عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس. وأخرج شطره الثاني الطبري والبزار بألفاظ قريبة. (الدر المنثور ٦/٤٠٦). وقد ساق المصنف رواية الطبري بعده مباشرة.

(١) في ب: «الحنيفي». الحسين بن علي الحنفي، ضعيف. (تهذيب التهذيب ٢/٣٦٤).

(٢) معمر بن راشد البصري نزيل اليمن، ثقة ثبت، فاضل، توفي ١٥٤. (تهذيب التهذيب ١٠/٢٤٣).

(٣) الزهري: محمد بن مسلم بن شهاب الحافظ المتقن المعروف، توفي نحو ١٢٥هـ. (تهذيب التهذيب ٩/٤٤٥؛ وتذكرة الحفاظ ١/١٠٨).

(٤) أبو حازم: هو سلمان الكوفي، ثقة، توفي سنة ١٠٠هـ. (تهذيب التهذيب ٩/٤٤٥).

(٥) «إذ» ليس في ج.

(٦) في ب، م: «الله أكبر» مرة واحدة فقط.

(٧) في ج: «طباعهم».

(٨) في ج: «يماني».

ورواه أيضاً من طريق عبدالأعلى[1] عن معمر عن عكرمة مرسلاً[2].

وكذا هو في تفسير عبدالرزاق: عن معمر أخبرني ممن سمع عكرمة، فأرسله[3].

---

(١) عبدالأعلى بن عبدالأعلى البصري السامي، ثقة، توفي سنة ١٨٩هـ. (تهذيب التهذيب ٩٦/٦).

(٢) رواه الطبري ورواه البزار بنحوه. (جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢١٥/٣٠، ط. الأميرية ١٣٢٩هـ؛ وفتح الباري ١٠٠/٨؛ وتفسير ابن كثير ٥٣٠/٨؛ وروح المعاني ٢٥٦/٣٠ ـ ٢٥٧).

(٣) وروى البخاري ومسلم والترمذي ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتاكم أهلُ اليمن، هم أرقُّ أفئدة وألينُ قلوباً، الإيمانُ يمان، والحكمةُ يمانية، والفخرُ والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينةُ والوقارُ في أهلِ الغنم». (صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

وعن جبير بن مُطْعِم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يطلُعُ عليكم أهلُ اليمن كأنهم السحاب، هم خير أهل الأرض» الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني. (فتح الباري ١٠٠/٨).

أقولُ: لقد تعددتْ أقوالُ الأئمة في المراد من الحديث ورواياته. فقيل: المرادُ أهلُ مكة، وقيل: الأنصار، وقيل: أهل مكة والمدينة. وقيل: أهل اليمن.

ورجَّح الإمامُ الآلوسي أن المقصودين به هم الأنصار وأهل اليمن، فقال: «والظاهر أنه ثناء على أهل اليمن، لإسراعهم إلى الإيمان وقبولهم له بلا سيف. ويشمل الأنصار من أهل اليمن وغيرهم. فكأنَّ الإيمانَ كان في سِنْخِ قلوبهم، فقبلوه كما أُنهي إليهم، كمن يجد ضالته». (روح المعاني ٢٥٧/٣٠). والسِّنخ: الأصل، كذا في النهاية لابن الأثير. =

وهـذا[1] لا يـدل على اختصــاص أهـل اليمن بـ ﴿النــاس﴾

= ورجح أبو عبيد أن المراد بذلك الأنصار، لأنهم يمانيون في الأصل، فنسب الإيمان إليهم، لكونهم أنصاره.

وقال ابن الصلاح: «ولو تأملوا ألفاظ الحديث لما احتاجوا إلى هذا التأويل، لأن قوله: «أتاكم أهل اليمن» خطاب للناس، ومنهم الأنصار. فيتعين أن الذين جاؤوا غيرُهم... ومعنى الحديث: وصفُ الذين جاؤوا بقوة الإيمان وكماله.. ثم المراد الموجودون حينئذ منهم، لا كلُّ أهل اليمن في كل زمان». (فتح الباري ٨/٩٩).

كان قدوم أبي موسى الأشعري على النبي صلى الله عليه وسلم عند فتح خيبر لما قدم جعفر بن أبي طالب. فوفدُ الأشعريين قدم مع أبي موسى في سنة سبع عند فتح خيبر، وهو مقصود الأحاديث المتصلة بتفسير سورة النصر. ثم قدم وفد حمير من اليمن في سنة تسع وهي سنة الوفود، واجتمعوا عند النبي صلى الله عليه وسلم مع بني تميم.

ففي كتاب «الصحابة لابن شاهين» من طريق إياس بن عُمير الحميري أنه قدم وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من حمير، فقالوا: أتيناك لنتفقه في الدين... الحديث.

فأنت ترى أن وفد حمير قدم من اليمن سنة تسع، وهم «أهل اليمن» المقصودون بترجمة البخاري لأحاديث الباب: «باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن». (انظر تفصيل ذلك في: فتح الباري ٨/٩٧ ـ ١٠٠).

وزبدة القول: أن وفد حمير الذي قدم من اليمن سنة تسع للهجرة ليس مقصوداً بحديث الرسول: «جاء الفتح، وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن» وأن المقصودين بحديث النسائي هذا وغيره الأشعريون، وهم طليعة وفود أهل اليمن.

وإن قدوم الأشعريين سنة سبع للهجرة يؤيد قول الجمهور بأن سورة النصر قد نزلت قبل فتح مكة. وهذا ما نذهب إليه، ويظهر رجحانه بدلائل كثيرة، والله أعلم.

(١) «وهذا»: يعني الحديث السابق برواياته.

المذكورين[1] في الآية[2]، وإنما يدل على أنهم داخلون في ذلك، فإن[3] الناس أعم من أهل اليمن[4].

قال ابن[5] عبدالبر: «لم يمتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجلٌ كافر، بل دخل الكلُّ في الإسلام بعد حُنين[6] والطائف، منهم من قدم، ومنهم[7] من قدم وافده[7]. ثم كان بعدُ مَن الردةِ ما كان، ورجعوا كلُهم إلى الدين»[8].

---

(١) في ب، م: «المذكورون».

(٢) «في الآية»: يعني قوله تعالى: ﴿ورأيتَ الناسَ يدخلون في...﴾ والظاهر أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ورأيت﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم. فإما أن تكون مِن «رأى» البصرية، بمعنى أبصرت، و﴿الناس﴾ مفعول به، و﴿يدخلون...﴾ جملة حالية.
وإما أن تكون مِن «رأى» العلمية، بمعنى علمتَ، و﴿الناس﴾ مفعول به أول، وجملة ﴿يدخلون...﴾ مفعول به ثان. (روح المعاني ٣٠/٢٥٦؛ وأنوار التنزيل ٨/٤٠٦).

(٣) قوله: «فإن» ليس في ب.

(٤) لكن قال عكرمة ومقاتل: «المراد بالناس أهل اليمن، وفد منهم سبعمائة رجل وأسلموا». (الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦).
أقول: والراجح ما رجحه الإمام ابن رجب، نظراً لعموم اللفظ وعدم التخصيص، فإن حديث الطبري ليس مُخصِّصاً، كما أفاد المصنف رحمه الله.

(٥) قوله: «ابن» ليس في ب.

(٦) في ج: «خيبر».

(٧-٧) في ب، م: «ومنهم من لم يقدم وافده»، وفي ج: «وفده، كان».

(٨) انظر هذا النص لابن عبدالبر والذي يليه لابن عطية في: روح المعاني ٣٠/٢٥٦.

قال ابن عطية: «المراد ـ والله أعلم ـ العربُ عبدةُ الأوثان. وأما نصارى بني تغلب فما أَراهم[1] أسلموا قطّ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنْ أعطوا الجزية»[2].

و «**الأفواج**»: الجماعةُ إثْرَ الجماعةِ، كما[3] قال: **﴿كلما أُلقي فيها فوج﴾**[4].

---

(١) في م: «فما نراهم».

(٢) أقول: والحق أن المراد من قوله تعالى: ﴿ورأيت الناس. . .﴾ عموم الناس، كما قال الإمام ابن رجب رحمه الله وأئمة التفسير المحققون. ووجه ذلك أن لفظ ﴿الناس﴾ جمع محلى بأل، وهو من صيغ العموم، فيشمل كل من آمن من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان من العرب وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿يدخلون في دين الله﴾ يعني في ملة الإسلام، فإنها الدين الآلهي الوحيد الصحيح الذي يجوز أن ينسب إلى الله تعالى فيقال عنه: «دين الله» لقوله تعالى: ﴿إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام﴾ (آل عمران: ١٩)، وقوله: ﴿ومَنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسرين﴾ (آل عمران: ٨٥).

قال أبو السعود: «ودين الله: ملةُ الإسلام، التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها».

(إرشادُ العقلِ السليم ٥/٢٨٩؛ وانظر: روح المعاني ٣٠/٢٥٦).

(٣) في ج: «كما قال الله تعالى».

(٤) سورة الملك: الآية ٨.

قال الراغب الأصفهاني: «فوج: الفوج الجماعة المارة المسرعة».

وقال الإمام القرطبي: «أفواجاً: أي جماعات، فوجاً بعد فوج».

وقال الآلوسي: «أفواجاً: أي جماعات كثيرة، إسلامهم بغير قتال، وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته عليه الصلاة والسلام. وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه =

وفي المسند من طريق الأوزاعي[1]، حدثني أبو عمار[2]، حدثني جار[3] لجابر بن عبدالله قال: قدمتُ من سفر فجاءني[4] جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ يسلم عليّ فجعلتُ أُحدّثه عن افتراق الناس وما[5] أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الناسَ دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً»[6].

= واحداً واحداً، اثنين اثنين». واستدلَّ الألوسي لقوله بحديث البخاري عن عمرو بن سلمة. وقد مرَّ ذكره.

أقول: إنَّ في قوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ أسلوباً بليغاً من أساليب التصوير الحي في القرآن العظيم، وقد آثر التعبير بصيغة المضارع ﴿يدخلون﴾ دون الماضي «قد دخلوا» فدلّ على استمرار انتشار الإسلام على نطاق بشري واسع، وقد حصل ذلك وتحقق يقيناً، لا يماري فيه مؤمن ولا كافر.

(انظر: كتابي: بينات المعجزة الخالدة، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٧ ـ ٢٩٩؛ وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٠؛ وإرشاد العقل السليم ٥/٢٨٩؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٦؛ ومفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني مادة «فوج»).

(١) الأوزاعي: هو عبدالرحمن بن عمرو بن أبي عمرو، ثقة جليل، توفي سنة ١٥٧هـ. (التهذيب ٢/٢٣٨؛ والتقريب ١/٤٩٣).

(٢) أبو عمار: هو شداد بن عبدالله القرشي الدمشقي، ثقة. (تعجيل المنفعة، ص ٥٠٨؛ التهذيب ٤/٣١٧؛ والتقريب ١/٣٤٧).

(٣) جار لجابر بن عبدالله: مبهم مجهول. (تعجيل المنفعة، ص ٥٢، رقم ١٦١٣).

(٤) في ب، م: «فجاء».

(٥) في ب: «فما».

(٦) هذا لفظه في مسند الإمام أحمد ٣/٣٤٣، وإسناد الحديث ضعيف لجهالة جار جابر بن عبدالله، والله أعلم.

وقوله: ﴿فسبح بحمد ربك﴾:

فيه قولان حكاهما ابن الجوزي:

أحدهما: أن المراد به[1] الصلاة، نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: التسبيح المعروف.

وفي الباء في «بحمد» قولان:

أحدهما: أنها للمصاحبة، فالحمد مضاف إلى المفعول، أي فسبحه[2] حامداً له[3]. والمعنى: **اجمعْ** بين تسبيحه، وهو تنزيهه عما لا يليق به من النقائص، وبين تحميده[4]، وهو إثباتُ ما يليق به من المحامد.

والثاني: أنها للاستعانة، والحمد مضاف إلى الفاعل، أي سبحه بما حمد به نفسه، إذْ ليس كل تسبيح بمحمود[5]، كما أنّ تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات، كما كان بشر المريسي[6]

---

(١) قوله: «به» ليس في ب، م.

(٢) في ج: «فسبحت».

(٣) قلت: وتقدير الكلام: «فسبح حامداً ربك» وهو أعظم من «فسبحْ ربك».

(٤) في ج: «تمجيده». أقول: والظاهر أن الأمر بالتسبيح عام غير مخصوص بالصلاة.

(٥) في م: «ليس بمحمود».

(٦) بشر المريسي: هو بشر بن ثابت بن غياث بن أبي كريمة، رأس الفرقة المريسية من فرق المرجئة، وهو على سعته في الفقه زلت قدمه حينما دخل فيما لا يعنيه، وهو الذي ناظره الإمام الشافعي، توفي سنة ٢١٩هـ. (تاريخ بغداد ٥٦/٧، والفرق بين الفِرَق للبغدادي، ص ١٢٤، طبع مصر).

يقول: سبحان ربي الأسفل[1].

* العفو والمغفرة والتوبة *

وقوله[2]: ﴿واستغفره﴾:

أي اطلب مغفرته، والمغفرة: هي وقاية شر الذنب، لا مجرد الستر[3]، والفرق بين العفو والمغفرة، أن العفو محو أثر الذنب، وقد يكون بعد عقوبة عليه، بخلاف المغفرة فإنها لا تكون مع العقوبة[4].

---

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ونعوذ بالله من الزيغ والعناد. وكلُّ مَنْ تعنت في مذهبه وأعمت العصبية قلبه أخرجته إلى الوقاحة في جنب الله وجنب رسوله. نسأل الله السلامة والعافية.

أقول: إن أفضل وأكمل عبائر ذكر الله تعالى وحمده وتسبيحه ودعائه ما ورد في الكتاب والسنّة. لكن نص القرآن في هذه السورة وفي غيرها لم يُلزم المؤمنين بعبارات وصيغ بأعيانها في ذلك، فإن الأمر بالتسبيح والتحميد.. قد ورد في الأغلب مطلقاً غير مقيد، وهذا ينفي ما زعمه في زماننا بعض الأدعياء الغلاة، أن الذكر والدعاء بغير المأثور في الحج وسواه بدعة.

وقد ذكرت دلائل ذلك من الكتاب والسنّة في الدراسة المقدمة، ص ٧ وما بعدها.

(٢) في ب: «قوله تعالى».

(٣) في ب، م، ج: «ستره».

(٤) قال الراغب الأصفهاني: «والغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبدَ من أن يمسه العذاب.. والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفعال.. قيل: الاستغفار باللسان من دون ذلك بالفعال فِعلُ الكذابين».

وقال الآلوسي: «يغفر لكم ذنوبكم: يتجاوز لكم عنها».

وقال الإمام ابن رجب: «والاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة: هي وقاية شر =

وقوله: ﴿**إنه كان تواباً**﴾:

إشارة إلى أنه سبحانه يقبل توبة المستغفرين المنيبين إليه. فهو ترغيب في الاستغفار وحث على التوبة[1].

وقد فهم طائفة من الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أُمِرَ بالتسبيح والتحميد والاستغفار عند مجيء نصر الله والفتح، شكراً لله على هذه النعمة. كما صلى النبي[2] صلى الله عليه

= الذنوب مع سترها. وقد كثر الاستغفار في القرآن. .». (انظر: مفردات ألفاظ القرآن، مادة «غفر»، ص ٣٦٢؛ وروح المعاني ١٢٩/٣؛ وجامع العلوم والحكم لابن رجب، ص ٣٤٤).

(١) وقال الراغب في مفرداته، ص ٧٦: «توب: التوب ترك الذنب على اجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك. وهذا الأخير هو التوبة».

«والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة. فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة».

«والتائب: يقال لباذل التوبة، ولقابل التوبة. فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده».

«والتواب: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب، حتى يصير تاركاً لجميعه، وقد يقال لله ذلك ــ إنه كان تواباً ــ لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال. وقوله: ﴿ومن تابَ وعملَ صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل»، ا. هـ.

(٢) قوله: «النبي» ليست في ب، م.

وسلم يوم فتح مكة ثمان ركعات. وكذلك صلى سعد[1] رضي الله عنه يوم فتح المدائن، وكانت[2] تسمى: صلاة الفتح[3].

* علامة اقتراب أجله صلى الله عليه وسلم *

وأما عمر وابن عباس رضي الله عنهم فقالا: بل كان مجيء النصر والفتح علامةً على اقتراب أجله وانقضاء عمره، فأُمِرَ[4] أن يَختِمَ عملَه بذلك، ويتهيأ للقاء الله والقدوم عليه، على أكمل[5] أحواله وأتمها.

فإنه لما جاء نصر الله والفتح بحيث صارت مكة دار إسلام، وكذلك جزيرة العرب كلها، ولم يبق بها كافر، ودخل الناس في دين الله

---

(١) في ب، م: «سعيد»؛ والصواب كما أثبت أعلاه.

(٢) في م: «وكانت تلك».

(٣) رأى أولئك الصحابة أن المراد من السورة الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار لدى مجيء النصر والفتح، وهذا ظاهر النص. لكنّ عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس فهما أن تنزيل السورة وتحقق البشارة بالنصر والفتح إعلام للرسول صلى الله عليه وسلم باقتراب أجله. وقولهما هذا مأخوذ من إشارة النص، فلا ينفي ما قاله الصحابة الآخرون، بل يعني أن المراد من السورة كلا الأمرين معاً، يتبين لك ذلك من تبيان الإمام ابن رجب فيما يلي:
«وهذا الخلاف في التفسير ليس اختلاف تضاد وإنما هو اختلاف تنوع، وسببه أن بعض الصحابة أدركوا بعض المراد العام للسورة دون بعض؛ لدقته وخفائه».
(انظر أصله في: مقدمة التفسير، ابن تيمية، ص ٣٨ ـ ٤٣، ط. بيروت).
وصلاة الفتح سنة. (انظر التفصيل في: روح المعاني ٢٥٨/٣٠).

(٤) قوله: «فأمر» ليس في ج.

(٥) في ج: «أحسن».

أفواجاً. وقد[1] بلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالات ربه وعلّم أمته مناسكهم وعباداتهم، وتركهم على البيضاء، ليلها كنهارها، لم يبق له في الدنيا حاجة، فحينئذ تهيّأ للنّقلة إلى الآخرة، فإنها خير له من الأولى[2]، ولهذا نزلت: ﴿**اليوم أكملتُ لكم دينَكم**﴾[3] بعرفة.

وعلَّمَ الأمةَ مناسكهم، وقال لهم[4]: «لعلي لا أراكم بعد عامي

---

(١) قوله: «قد» ليس في ب.

(٢) في ب، م: «الدنيا».

(٣) زاد في ب طرفاً آخر من الآية: ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾ (سورة المائدة: ٣).

روى الإمام أحمد وغيره عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأيُّ آية؟ قال: قوله: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليومَ الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعةَ التي نزلتْ فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزلتْ عشية عرفةَ في يوم جمعة.

(روى الحديث الإمام أحمد في المسند ١/٢٨؛ والبخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب اليوم أكملتُ لكم دينكم وفي مواطن أخرى؛ ورواه الإمام مسلم في أول التفسير ٤/٢٣١٣؛ والترمذي في التفسير ٥/٢٥٠؛ والنسائي ٥/٢٥١، ٨/١١٤؛ ورواه الطبري في تفسيره ٩/٢٢٥، ٥٢٦، ٥٣٠، ط. دار المعارف؛ التمس تفسير الآية وما يتصل بها في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٢٣ ـ ٢٦).

(٤) قوله: «لهم» ليس في ج.

هذا»[1] وقال لهم: «هل بَلَّغتُ؟» قالوا: نعم، وأَشْهَدَ اللَّهَ عليهم بذلك، وودَّعَ الناسَ فقالوا: هذه حَجّةُ الوداع[2].

وقد خُيِّرَ[3] صلى الله عليه وسلم بين الدنيا وبين لقاء ربه، فكان آخر ما سمع منه: «اللهم الرفيقَ الأعلى»[4].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٨/١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) روى الحديث عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع الإمام البخاري في مواضع صحيحة، جاء فيها: «... فإن دماءَكم وأموالكم وأعراضَكم وأبشارَكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم، قال: اللهم اشهد! فَلْيبلغ الشاهدُ الغائبَ، فإنه رُبَّ مُبَلِّغ يُبلغه من هو أوعى له، فكان كذلك، قال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض».
وجاء في رواية ثانية للبخاري أنه قال في خطبته صلى الله عليه وسلم: «هذا يوم الحج الأكبر. وطفقَ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم اشهدْ! وودَّعَ الناس، فقالوا: هذه حَجةُ الوداع».
(صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي: لا ترجعوا بعدي كفاراً..، وكتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، وكتاب المغازي، باب حجة الوداع؛ انظر: فتح الباري ١٣/٢٦ و٣/٥٧٤ و٨/١٠٣؛ وانظر: صحيح الإمام مسلم، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ٢/٨٨٦ ـ ٨٩٠؛ وروى الحديث أبو داود، كتاب الحج، باب صفة حجة النبي ١/٤٤٢؛ ورواه ابن ماجه، المناسك، باب حجة رسول الله ٢/١٠٢٤).

(٣) في م: «وقد خُير النبي».

(٤) هذا موجز لحديث البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة، رضي الله عنها.
وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنتُ أسمعُ لا يموتُ نبيٌ حتى يُخيَّرَ بين الدنيا والآخرة، فسمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول في =

ونظير هذا الفهم الذي[1] فهمه عمر من السورة ما فهمه[2] أبو بكر رضي الله عنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته[3]: «إنّ عبداً خُيِّر بين[4] لقاء ربه وبين الدنيا[4] فاختار لقاء ربه»[5]، وقد سبق من

= مرضه الذي مات فيه ـ وأخذته بُحّة ـ يقول: « ﴿مع الذين أنعمَ اللـهُ عليهم﴾ الآية»، فظننتُ أنه خُيِّر.

وقال الإمام ابن حجر: «وقد وقع لي من طريق أحمد بن حرب عن مسلم بن إبراهيم شيخ البخاري فيه بزيادة بعد قوله: «الذي قبض فيه: أصابته بُحّة فجعلتُ أسمعه يقول: في الرفيق الأعلى ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ الآية. قالت: فظننت أنه يُخيّر»، ا. هـ.

و «الرفيق» هنا: اسم جنس، يشمل الواحد وما فوقه، والمراد به الأنبياء ومن ذُكر في الآية. هذا هو المعتمد في معناه، وعليه اقتصر أكثر الشراح، وقيل غير ذلك وهو مرجوح.

واختتام الآية بكلمة ﴿رفيقاً﴾ بالإفراد، فيه إشارة إلى أن أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد.

أقول: وهذا يفيد أن أهل الجنة يتخلصون من شدائدَ ومرائرَ كانوا يعانون منها في الدنيا، لاختلاف القلوب وما يصدر عنها من شقاق وإساءات، واختلاف أهواء وتصادم آراء. فقد نزع الله في الجنة ما في قلوبهم من غل إخواناً في صفاء وود ووفاء، وأراح قلوبهم من كل كرب وعناء. وهذا نعيم عظيم، وأعظِم به من نعيم!!.

(انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، فتح الباري ٨/١٣٦ ـ ١٣٧).

(١) في ج: «الداعي فهم» وهو خطأ من الناسخ.

(٢) في ج: «فهم».

(٣) قوله: «في خطبته» ليس في ب، م.

(٤ـ٤) في ج: «بين الدنيا ولقائه».

(٥) وأصل الحديث في صحيح الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله=

حديث ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على ذلك.

وفي صحيح البخاري من (١ حديث١) سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ (٢ بعضَهم وَجَدَ في نفسه فقال٢): لِمَ تُدخلُ(٣) هذا معنا ولنا أبناء

= عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: «إنَّ عبداً خَيَّرهُ اللـهُ بين أن يُؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده». فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خَيَّرهُ اللـهُ بين أن يُؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المُخَيَّرُ، وكان أبو بكر هو أعلمُنا به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ منْ أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنتُ متخِذاً خليلاً من أمتي لاتخذتُ أبا بكر، إلا خُلَّةَ الإسلام، لا يَبْقَيَّنَ في المسجد خوخة إلا خوخةُ أبي بكر».

قوله صلى الله عليه وسلم: «أمّن الناس عليّ، أمن: أفعل تفضيل من «المن» بمعنى العطاء والبذل، بمعنى: أنه أبذلُ لنفسه وماله، لا من المنة التي تفسد الصنيعة. (انظر: فتح الباري ١٣/٧، ٢٢٧؛ وانظر فيه: ٥٥٩/١).

وانظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ٢٥٣/٤ ــ ٢٥٤، ط. المكتبة الإسلامية باستنبول؛ وفي البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد عن أبي سعيد، وعن ابن عباس مختصراً، وفيه: ولكن خُلة الإسلام أفضل» ١١٩/١ ــ ١٢٠؛ وأخرجه البخاري، في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر ٨٩٠/٤.

وأخرجه الدارمي بنحوه في مقدمة سننه ٣٨/١، ط. دار الفكر القاهرة.

(١ــ١) في م: «عن».

(٢ــ٢) في ج: «وكأن. . . وقال» بالواو في الموضعين.

(٣) في ج: «يدخل».

مثله؟، فقال عمر: إنه ممن [١] قد علم [١]، فدعاهم عمر[٢] ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيتُ[٣] أنه دعاني فيهم يومئذ إلا لِيُريَهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزَّوجل: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمدَ اللـهَ ونستغفره إذا [٤] جاء نصرنا [٤] وفتح علينا، وسكتَ بعضُهم، فلم يقلْ شيئاً، فقال لي: أكذلكَ تقولُ يا ابنَ عباس؟ قلت: لا! قال: فما تقول؟ فقلت[٥]: هو أجلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أَعْلَمه له. قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذاك علامةُ أجلِك، ﴿فسبحْ بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾. فقال عمر بن الخطاب: ما نعلمُ[٦] منها إلا ما تقول.

وقد رُويت هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما من غير وجه[٧].

(١ـ١) في ج: «إنه ممن قد علمتم» وكذا في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منزل النبي يوم الفتح. وفي هامش ج: «لعله: من» وهو شك من الناسخ في كلمة «ممن». وفي البخاري كتاب التفسير: «إنه من حيث علمتم».

(٢) قوله: «عمر» ليس في ب، ج وليس في البخاري، في كتاب المغازي، ولا في كتاب التفسير.

(٣) في كتاب المغازي: «وما أُريته»، وفي كتاب التفسير: «فما رُئيتُ».

(٤ـ٤) في البخاري: «إذا نصرنا».

(٥) في م: «فقلت».

(٦) في ج: «لا أعلم»، وفي البخاري: «ما أعلم»، وهناك اختلافات لفظية يسيرة، لم نُشر إليها.

(٧) قد رواها البخاري ـ كما أشرت آنفاً ـ وسعيد بن منصور وابن سعد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي وأبو نُعيم معاً في الدلائل عن ابن =

. . . .

= عباس. واكتفى الإمام ابن كثير بنسبته إلى البخاري، وقال: «تفرد به البخاري» يعني من بين الأئمة الستة. (تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٠؛ والدر المنثور ٦/ ٤٠٧؛ وتفسير الطبري ٣٠/ ٣٣٣).

«أشياخ بدر»: الذين شهدوا بدراً من المهاجرين والأنصار، وكان عمر يُدخل الناسَ على قَدْرِ منازلهم في السابقة. وقد يُدخل مع أسبقهم «هم أهل بدر» من ليس منهم؛ لمزية فيه تجبر ما فاته. ويفيدك هذا أن عمر رضي الله عنه قد عمد إلى مشاورات ومدارسات دورية مستمرة في خدمة الإسلام والمسلمين.

«فكأن بعضهم وجد في نفسه»: غضب.

قال الإمام ابن حجر: «وهذا القائل... «بعضهم» هو عبدالرحمن بن عوف الزهري، أحد العشرة ــ المبشرين بالجنة ــ كما وقع مصرحاً به عند المصنف في علامات النبوة...: «كان عمر يدني ابن عباس، فقال له عبدالرحمن بن عوف: إنَّ لنا أبناء مثلَهُ»، وأراد بقوله: «مثله» أي في مثل سِنَّهِ، لا في مثل فضله وقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم. ولكنْ لا أعرف لعبدالرحمن بن عوف ولداً في مثلِ سِنِّ ابن عباس... فلعله أراد بالمثلية غير السن، أو أراد بقوله: «لنا» مَنْ كان له ولد في مثل سن ابن عباس من البدريين..».

أقول: ويظهر لي أن الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف لاحظ تأثُّر بعض إخوانه البدريين، فأراد إزالةَ ما علق بنفوسهم، فحملَ عمر بن الخطاب على بيان الحكمة باستفساره، مع استغنائه شخصياً عن ذاك البيان، إذْ لا يغيبُ عن مثله، وليس له ولد يثير حرصاً أبوياً على مماثلة ابن عباس! إن اعتراضه شخصياً دون تسمية أحد يدل على سمو أخلاقه إذْ ابتغى استمرار صلاح ذات البين وصفاء القلوب رضي الله عنهم جميعاً.

وقال ابن حجر: «إنه ممن علمتم»: وأشار بذلك إلى قرابته من النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى معرفته وفطنته، وقد روى عبدالرزاق عن معمر عن الزهري قال: قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءَنا كما تدعو ابن عباس؟ قال: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً. =

وفي المسند عن أبي رُزين[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ علمَ النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد نُعيتْ إليه نفسه»[2].

وقد سبق حديث[3] ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه السورة أَخَذَ في أشد ما كان اجتهاداً في أمرِ الآخرة.

= وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق... قال العباس لابنه: إنَّ هذا الرجل ـ يعني عمر ـ يُدْنيك، فلا تُفشينّ له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يسمع منك كذباً. وفي رواية عطاء بدل الثالثة: ولا تبتدئه بشيء حتى يسألك عنه»، ا. هـ.

وقال ابن حجر: وفيه فضيلة ظاهرة لابن عباس، وتأثير لإجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، كما تقدم في كتاب العلم. وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا لإظهار نعمة الله عليه، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته، وغير ذلك من المقاصد الصالحة، لا للمفاخرة والمباهاة. وفيه جواز تأويل القرآن بما يُفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رَسخت قدمه في العلم. ولهذا قال علي رضي الله عنه: أو فهماً يُؤتيه الله رجلاً في القرآن. (فتح الباري ٧٣٥/٨ ـ ٧٣٦).

(١) أبو رزين: هو مسعود بن مالك الأسدي الكوفي، ثقة فاضل، توفي سنة ٨٥هـ. (تهذيب التهذيب ١١٨/١٠).

(٢) وفي آخره في المسند زيادة: «فقيل ﴿إذا جاء نصر الله﴾ السورة كلها». وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. (انظر: المسند ٧٢/٥، ط. دار المعارف بمصر).

(٣) في ج: «من حديث»، وقد مرّ بك نص الحديث.

وروى الخرائطي في كتاب الشكر من طريق شاذ[1] بن فياض، عن الحارث بن شبل[2]، عن أم النعمان الكِندية، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿**إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً**﴾[3] اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة، فقيل له[4]: يا رسول الله ما هذا الاجتهاد؟! أَلَيس قدْ غفر اللـهُ[5] لكَ ما تقدّمَ من ذنبِكَ وما تأخر؟! قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً». إسناد[6] ضعيف.

وروى البيهقي من طريق سعيد بن سليمان[7]، عن عبّاد بن العوّام[8]، عن هلال بن خَبَّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ دعا رسول الله صلى

---

(١) في أ: «ساد»، وفي ب بياض في موضعه، وفي ج: «بشار». لكن لما أخرج الحديث الخرائطي في فضيلة الشكر، ص ٤٩، حديث ٥٢، ذكره في إسناده كما أثبتناه أعلاه: «شاذ بن الفياض»: وهو أبو عبيدة اليشكري، كان اسمه «هلال» فغلب عليه «شاذ» صدوق له أوهام وأفراد. (تهذيب التهذيب ٤/٢٩٩).

(٢) الحارث بن شبل: بصري ضعيف. (تهذيب التهذيب ٢/١٤٤).

(٣) سورة الفتح: الآية ١.

(٤) قوله: «له» ليس في م.

(٥) قوله: «الله» ليس في ب.

(٦) في ب: «إسناده».

(٧) سعيد بن سليمان الضبي أبو عثمان الواسطي، نزيل بغداد، سعدويه، ثقة حافظ، توفي سنة ٢٢٥هـ. (تهذيب التهذيب ٤/٤٣).

(٨) عباد بن العوّام: الكلابي أبو سهل الواسطي، ثقة، توفي سنة ١٨٥هـ أو بعدها. (تهذيب التهذيب ٥/٩٩) وبقية رجاله تقدموا في ص ١٣.

الله عليه وسلم فاطمة وقال: «إنه قد نُعيتْ إليَّ نفسي»، فبكتْ[1] ثم ضحكت، وقالتْ: أخبرني أنه [2]نُعيت إليه نفسه[2]، فبكيتُ. ثم أخبرني بأنك أولُ أهلي لحاقاً بي، فضحكت[3].

---

(١) تمام الحديث في ج هكذا: «فبكيت ثم أخبرني بأنك أول أهلي لحاقاً بي، ثم ضحكت».

(٢-٢) في ب، م: «إنه قد نُعيتْ إليَّ نفسي».

(٣) **أقول**: المشهور عند المحدثين أن زيارة السيدة فاطمة عليها السلام كانت في مرضه الذي توفي فيه، كما في رواية البخاري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، وفي كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته.

لكن البخاري روى عن مسروق عن عائشة أيضاً، أن الرسول استنتج قرب أجله بسبب معارضة جبريل له بالقرآن مرتين في رمضان بينما كان يعارضه مرة واحدة في كل عام في رمضان. ويظهر أن البيهقي والدارمي تفردا بالرواية المذكورة من طريق هلال بن خباب، والتي نصت على أن دعوة الرسول ابنته كانت إثر تنزيل سورة النصر عليه. فإذا صحت الرواية فالظاهر أن الحادثة قد تكررت. (سنن الدارمي ١/٣٧).

ويبدو لي أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتد به المرض دعا ابنته عليها السلام فكلمها مبيناً لها أنه ليس مرضاً عابراً، إنما هو مرض الموت، بدلالة معارضة جبريل له بالقرآن مرتين.

ولا تنافي بين هذه المذكورات من علامات دنو أجله صلى الله عليه وسلم. أما تنزيل سورة النصر فهو أول أمارات أجله وأبعدها عنه، وجاءت المعارضة بالقرآن مرتين متأخرة عنها في آخر رمضان من حياته صلى الله عليه وسلم أي قبيل وفاته بخمسة أشهر. وجاء بعد المعارضة تخييره ومرضه الذي توفي فيه، فودع ابنته وداعاً خاصاً وزَفَّ إليها بشارتها الخاصة. وإليك نص الحديث:

روى الإمام البخاري في باب علامات النبوة عن مسروق عن عائشة رضي الله =

= عنها قالتْ: أقبلتْ فاطمةُ تمشي كأنّ مِشيتها مَشيُ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها النبي: «مرحباً بابنتي»، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكتْ فقلت لها: لمَ تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكتْ فقلت: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب من حزن!! فسألتها عما قال، فقالت: ما كنتُ لأُفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم فسألتها فقالت: أسرَّ إليَّ: «إنّ جبريل كان يعارضني بالقرآن كلَّ سنة مرةً، وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي»، فبكيت فقال: «أما تَرْضَيْنَ أنْ تكوني سيدةَ نساءِ أهلِ الجنةِ أو نساءِ المؤمنين!؟»، فضحكتُ لذلك.

(وأخرج الحديثَ البخاريُ في الاستئذان وفي فضائل القرآن أيضاً؛ وأخرجه مسلم في فضائل فاطمة ٤/١٩٠٤؛ أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/٥١٨).

وقد روى النسائي من طريق أبي سلمة عن عائشة أن سبب بكاء فاطمة إخبار الرسول إياها بموته، وأن سبب ضحكها أنها أولُ أهل بيته لَحاقاً به، وأنها سيدة نساء أهل الجنة. لكن الإمام ابن حجر يرجح ما ورد في رواية مسروق عند البخاري أن سبب ضحكها أنها سيدة نساء أهل الجنة كما مر بك آنفاً.

أجل! إن فاطمة عليها السلام أحبُّ أولادِ إمامِ المتقين إليه، وها هي في رَيْعان الشبابِ، ولها أربع وعشرون سنةً من العمر، ولا يتوقع أحد وفاتها، ولكنْ لم تتجاوز حياتُها بعده ستة أشهر حتى التحقت بالرفيق الأعلى، كما ثبت في الصحيح من حديث عائشة، فكانتْ أولَ أهلِ بيته لَحاقاً به، كما أنبأها من قبل عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

قال ابن حجر: «وفي الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بما سيقع، فوقع كما قال، فإنهم ـ يعني الرواة والمؤرخين ـ اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانتْ أولَ مَنْ ماتَ من أهلِ بيت النبي صلى الله عليه وسلم بعده حتى من أزواجه». =

* اجتهاد الرسول في العبادة والتسبيح والاستغفار *

وكان النبـي صلى الله عليه وسلم يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار بعد نزول هذه السورة. ففي الصحيحين عن مسروق[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أنْ[2] يقولَ في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا[3] وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأولُ القرآن[4].

= (انظر فتح الباري ٦/٩٦؛ وعمدة القاري ٦/١٥٣ ــ ١٥٤؛ والإصابة في تمييز الصحابة ٤/٣٦٥ ــ ٣٦٨).

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك، الهمداني الكوفي، تابعي مخضرم ثقة، توفي نحو سنة ١٦٢. (تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩).

(٢) قوله: «يكثر أن» ليس في م، ب.

(٣) قوله: «ربنا» ليس في ج.

(٤) ومعنى «يتأول القرآن»: يعمل بما أُمر به في القرآن، وهو قوله: ﴿فسبحْ بحمد ربك واستغفره﴾ كذا قال العيني.

وقال ابن حجر: «يتأول القرآن»: يجعل ما أُمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال. (عمدة القاري ٢٠/٥؛ وفتح الباري ٨/٧٣٤).

أقول: الظاهر أن المراد أنه صلى الله عليه وسلم فسّر الآية الأخيرة من سورة النصر، وعمل بتفسيرها على خير وجه، إذْ أدى التسبيح والتحميد والاستغفار في الصلاة، يدل على ذلك أحاديث، منها حديث قبل هذا الحديث عند الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى النبـي صلى الله عليه وسلم صلاةً بعد أن نزلت عليه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي». (صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة النصر، الحديث ٤٩٦٨، فتح الباري ٨/٧٣٣).
=

وفي المسند وصحيح مسلم عنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»[١]، وقال: «إنَّ ربي كان أخبرني أني سأرى علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتُها أن أُسبحَ بحمده وأستغفرَهُ، إنه كان تواباً، فقد رأيتها ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ﴾ السورةَ كلَّها»[٢].

وروى ابن جرير من طريق حفص بن عاصم[٣]، عن الشعبي[٤]، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

= وأخرج الحديث باقي الأئمة الستة إلا الترمذي، وأخرجه كذلك عبدالرزاق وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها. وفيه: «يتأول القرآن»: يعني إذا جاء نصر الله والفتح. (انظر تفسير ابن كثير ٨/٥٣٢؛ والدر المنثور ٦/٤٠٨؛ وجامع الأصول ٤/١٩١ ــ ١٩٢؛ وكتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص ٣، ط. لبنان).

(١) وفي رواية ابن جرير الطبري زيادة: «فقلت إنك تُكثر من هذا، فقال: إن ربي...». (انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٣٠/٢١٦).

(٢) رواه الإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ ــ ٣٥١؛ والإمام أحمد في المسند ٦/٣٥؛ والطبري في تفسير سورة النصر ٣٠/٢١٦.

وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير الطبري وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة وفيه: تفسير الفتح بأنه فتح مكة. (انظر: الدر المنثور ٦/٤٠٨).

(٣) حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العمري، ثقة. (تهذيب التهذيب ٢/٤٠٢).

(٤) الشعبي: هو عامر بن شراحبيل، أبو عمرو، ثقة مشهور، توفي سنة ١٠٩هـ. (تهذيب التهذيب ٥/٦٥).

في آخرِ أمرِهِ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يذهبُ(1) ولا يجيءُ إلا قال: «سبحانَ اللـهِ وبحمدِهِ»، فقلت: يا رسول الله إنك تُكثرُ من سبحان الله وبحمده، لا (2تـذهب ولا تجيء ولا تقـوم ولا تقعـد إلا قلت: «سبحـان الله وبحمده2)»؟ قال(3): «إني أُمرتُ بها، فقال(4): ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**. . ﴾ إلى آخر السورة»(5). غريب.

وفي المسند عن أبي عبيدة (6)عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ كان يُكثر إذا قرأها وركع(7) أن يقول: «سبحانك اللهم [ربنا وبحمدك، اللهم] اغفر لي(8)، إنك أنت التواب الرحيم ثلاثاً»(9).

---

(1) قوله: «ولا يذهب» ليس في ج.

(2 ـ 2) ليس في ج.

(3) في م: «فقال».

(4) قوله: «فقال» ليس في م.

(5) رواه ابن جرير الطبري وابن مردويه أيضاً.
(جامع البيان عن تأويل آي القرآن 216/30؛ وتفسير ابن كثير 533/8؛ والدر المنثور 408/6).

(6) أبو عبيدة: عامر بن عبدالله بن مسعود، الكوفي، تابعي ثقة، لم ير أباه، توفي سنة 85. (تهذيب التهذيب 75/5).

(7) في ج: «وركع وسجد».

(8) قوله: «لي» ليس في م.

(9) قوله: «ربنا وبحمدك، اللهم» زيادة من مسند الإمام أحمد. وأورده ابن كثير بنحوه، وقال: تفرد به أحمد. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ونسبه أيضاً إلى أبي يعلى والبزار. وله في مسند الإمام أحمد عدة روايات بألفاظ قريبة، وقال عنه أحمد شاكر: إسناده ضعيف، لعدم سماع أبي عبيدة من أبيه. =

واعلم أنّ التسبيح والتحميد فيه[1] إثباتُ صفات الكمال ونفي النقائص والعيوب، والاستغفارُ يتضمنُ وقايةَ شرِّ الذنب[2]. فذاك حق الله وهذا حق عبده، ولهذا في خطبة الحاجة: «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره»[3].

= (انظر: تفسير ابن كثير ٨/٥٣٣؛ والمسند ٥/٢٥٢ ثم ص ٢٧١، ٢٨٠، ٢٤١، ط. دار المعارف بمصر).

(١) في ج: «من».

(٢) في ج: «الذنوب».

(٣) روى أبو داود عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبةَ الحاجةِ: إنَّ الحمدَ لله، نستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ به من شرور أنفسنا، من يهدِ اللـهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللـهُ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكمُ الذي خلقكم منْ نفسٍ واحدةٍ * وخلَقَ منها زوجَها * وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً * واتقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام * إن الله كانَ عليكم رقيباً﴾ (سورة النساء: ١)، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ (آل عمران: ١٢)، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقـوا الله وقولـوا قولاً سديداً * يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكمْ ذنوبَكم * ومَنْ يُطعِ اللـهَ ورسولَه فقدْ فازَ فوزاً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٧٠ ــ ٧١)»، وفي رواية محمد بن سليمان: لم يقل: «إن».

(رواه أبو داود بلفظه، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح ٢/٥٩١، حديث النساء ٢١١٨، ط. ثانية التجارية بمصر. ووقع فيها خطأ في آية النساء، هكذا: «يا أيها الذين آمنوا. . .».

ورواه الترمذي في أبواب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح ٣/٤٠٤، حديث ١١٠٥، ط. حمص؛ ورواه النسائي، كتاب الجمعة، بـاب كيفية الخطبة ٣/١٠٤ ــ ١٠٥، ط. التجارية بمصر). =

وكان رجل في زمن الحسن البصري معتزلَ الناسِ ، فسأله[1] عن حاله، فقال: إني أُصبح بين نعمة وذنب، فأُحْدِثُ[2] للنعمة حمداً، وللذنب استغفاراً، فأنا مشغولٌ بذلك. فقال الحسن: الزمْ ما أنت عليه، فأنت عندي أفقهُ من الحسن.

* أهمية الاستغفار ومغزاه *

والاستغفار هو خاتمة الأعمال الصالحة، فلهذا أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلَه خاتمةَ عُمُرِه.

كما يُشرع للمصلي[3] المكتوبةَ أن يستغفرَ عَقبها ثلاثاً، وكما يُشرع للمتهجد من[4] الليل أن يستغفر بالأسحار. قال تعالى: ﴿وبِالأسحارِ هُمْ يستغفرون﴾[5].

= وأورده ابن القيم عن ابن مسعود: «علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة النكاح..»، وعزاه إلى أهل السنن الأربعة. (الوابل الصيب، ص ٢٦٩، ط. الرياض).

(١) في ج، م: «فسأله الحسن».

(٢) في ج: «فأخذت».

(٣) في م: «المصلي» بلام واحدة.

(٤) في م: «بالليل».

(٥) حض الله تعالى عباده المؤمنين على المثابرة على الاستغفار سَحَراً، إذْ ذكره تعالى في جملةِ أفعالِ المتقين الدائمة وصفاتِهم الثابتة التي أَهَّلتهم لنيلِ مغفرة الله ورضوانه وجزيل ثوابه. قال الله تعالى: ﴿إن المتقين في جناتٍ وعيون * آخذينَ ما آتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليلِ ما يهجعون * **وبالأسحار هم يستغفرون** * وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم﴾ (سورة الذاريات: ١٥ ــ ١٩).

وقال[1]: ﴿والمستغفرينَ بالأسحارِ﴾[1].

وكما يشرع الاستغفارُ عقيب[2] الحج، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أفيضوا من حيث أفاضَ الناس واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾[3].

وكما يُشرعُ ختمُ المجالسِ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، وهو كفارة المجلس[4].

(١ـ١) ليس في م: وقال الله تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم * للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مُطَهَّرةٌ ورضوانٌ من الله * والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربَّنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنَا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين **والمستغفرين بالأسحار﴾** (سورة آل عمران: ١٥ ـ ١٧).

(٢) في ج، م: «عقب».

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من جَلسَ مجلساً كثُرَ فيه لغَطُه، فقال ـ قبل أن يقوم من مجلسه ذلك ـ سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفرَ له ما كان في مجلسه ذلك». أخرجه الترمذي وحسّنه، في جامعه، كتاب الدعوات ٥/٣٩٤؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه، موارد الظمآن، الحديث ٢٣٦٦، (لَغطُهُ): اللغَطُ: الرديء من الكلام والقبيح.
عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «كلماتٌ لا يتكلم بهن أحدٌ في مجلسه، عند قيامه ثلاثَ مرات إلا كُفِّر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا خُتم له بهنّ عليه، كما يُختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك».
أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب كفارة المجلس، الحديث ٤٨٥٧؛ ورواه ابن حبان في صحيحه موارد الظمآن، حديث ٢٣٦٧؛ =

وروي أنه يُختم به الوضوء أيضاً.

وسبب هذا أن[1] العبادَ مُقصِّرون عن القيام بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وإنما يؤدونها على قدر ما يطيقونه[2]، فالعارف يعرف أنّ قَدْرَ الحقِّ أعلى[3] وأجلُّ من ذلك. فهو يستحيي من عمله ويستغفر[4] من تقصيره فيه، كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته[5].

= وأخرجه أبو داود أيضاً بنحو ما سبق عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٤٨٥٨.

وقد رواه بنحوه الحاكم في المستدرك ٥٣٧/١ من حديث جبير بن مطعم، وصححه، ووافقه الذهبي؛ وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٢٣٦/٢ من حديث جبير بن مطعم، وقال: رواه النسائي والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

(انظر للتوسع: تفسير ابن كثير ٥٣٣/٨؛ وروح المعاني ٢٥٨/٣؛ وجامع الأصول ٢٧٦/٤ ـ ٢٨٠؛ والوابل الصيب، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

(١) مراده: والحكمة من تشريع الاستغفار في ختام الطاعات أن...

(٢) في م: «ما يطيقون».

(٣) قوله: «أعلى» من ج، وغير واضحة في الأصل.

(٤) في ج: «ويستغفره».

(٥) قال الإمام محمد الأنصاري القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿واستغفره إنه كان تواباً﴾: «فإن قيل: فماذا يُغفر للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يُؤمر بالاستغفار»؟.

قيل له: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «ربِّ اغفرْ لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطئي وعَمْدي وجهلي وهزلي، وكلُّ ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمتُ=

وكلما كان الشخصُ بالله أعرفَ كان له أخوفَ، وبرؤيةِ تقصيرهِ

= وما أخّرتُ، وما أعلنتُ وما أسررتُ، أنت المقدمُ وأنت المُؤخِّرُ، إنك على كل شيء قدير».

«فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسَهُ لِعِظَمِ ما أنعم الله به عليه، ويرى قصورَهُ عن القيام بحق ذلك ذنوباً».

«ويحتمل أن يكون بمعنى: كن متعلقاً به، سائلاً راغباً، متضرعاً، على رؤية التقصير في أداء الحقوق، لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال.

وقيل: الاستغفار تعبدٌ يجبُ إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبداً.

وقيل: ذلك تنبيهٌ لأمته لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار.

وقيل: «واستغفره» أي استغفر لأمتك، اهـ. (جامع أحكام القرآن ٢٠/٢٣٣).

وقال الإمام القاضي أبو السعود محمد العمادي في تفسير قوله تعالى: ﴿واستغفره﴾: «هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستعظاماً لحقوق الله تعالى، واستدراكاً لما فرط منك من ترك الأولى». (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/٢٨٩).

وهذا قول البيضاوي في أنوار التنزيل، أخذه أبو السعود ونَقَّحَهُ. وجاء في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: «قوله: «هضماً لنفسك»: أي كسراً للنفس بتذليلها وجعلها مذنبة محتاجة للاستغفار. وأصل معنى الهضم الكسر، ومنه هضم الطعام. وهو صلى الله عليه وسلم معصوم مغفورٌ له. فقوله: «أستغفر الله وأتوبُ إليه في اليوم والليلةِ أكثرَ من سبعين مرة» كما في البخاري... إما تعليماً لأمته، أو من تركه للأَوْلى أحياناً، أو تواضعاً، كما أشار إليه المصنف بقوله: هضماً.. الخ أو عما كان من سهو ولو قبل النبوة.

«وقيل: اشتغاله بالنظر في مصالح الأمة كمحاربة الأعداء، وتأليف المؤلفة، شاغل له عن مراقبةِ الله ومطالعة أسراره، وفراغه عما سواه، فَيَعُدُّه كالذنب، وإن كان طاعة لمرضاته، فيتنزل ويستغفر منه.

«وقيل: كان دائماً في الترقّي، فإذا ترقى عن مرتبة استغفر لما قبلها.

«وقيل: للطبائع غفلات مفتقرة للاستغفار. قاله الكرماني»، اهـ. =

أَبْصرَ. ولهذا كان خاتمُ المرسلين، وأعرفُهم بربّ العالمين، يجتهدُ في الثناءِ على ربه، ثم يقول في آخر ثنائه: «لا أُحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أَثنيتَ على نفسك»[1]. ومن هذا قول مالك بن دينار[2]: لقد هممتُ أن أُوصي إذا متُّ أنْ أُقيّد، ثم يُنطَلقَ بي كما يُنطلق بالعبد الآبق إلى سيده، فإذا سألني قلت: يا رب إني[3] لم أرضَ لك نفسي طَرْفَة عين[4].

وكان (5كَهْمَس5) يصلي كل يوم ألف ركعة، فإذا (6صلى أخذ بلحيته، ثم يقول لنفسه6): قومي يا مأْوى كلِّ سوء، فوالله ما رضيتُك لله طرفة (7عين7).

= (حاشية الشهاب على البيضاوي ٥/٤٠٧؛ وانظر: مدارك التنزيل للنسفي ٤/٣٨١؛ وروح المعاني ٣٠/٢٥٨).

(١) روى الإمام مالك في الموطأ والترمذي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفراش، فالتمستُهُ، فوقعتْ يدي في بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم إني أعوذ بك، برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك».
وأخرجه الإمامُ مسلم والنسائي بلفظ آخر. (جامع الأصول ٤/١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) مالك بن دينار، البصري، أبو يحيى، الزاهد، صدوق عابد، توفي سنة ١٣١هـ أو نحوها. (تهذيب التهذيب ١٠/١٤).

(٣) قوله: «إني» ليس في ج.

(٤) أوردَ هذا القول صاحب الحلية بلفظ قريب مختصر ٢/٣٦١.

(٥ـ٥) في موضعه بياض في ج.

(٦ـ٦) في الحلية: «فإذا ملّ قال لنفسه..».

(٧ـ٧) في الحلية: «ساعة فقط»، انظر ترجمته «كَهْمَس الدَّعَّاء» في حلية الأولياء ٦/٢١١ وما حولها.

فـائـدة

* في الاستغفار والتوبة *

الاستغفارُ يَرِدُ مجرداً، ويَرِدُ مقروناً بالتوبة، فإنْ وَرَدَ مُجرَّداً دخل فيه طلب وقايةِ شرّ الذنبِ الماضي بالدعاءِ والندمِ عليه، ووقايةِ شرِّ[1] الذنبِ المتوقع؛ وبالعزمِ[2] على الإقلاع عنه.

وهذا الاستغفار الذي يمنعُ الإصرارَ بقوله: «ما أَصرَّ مَنْ استغفرَ ولو عادَ في اليومِ سبعين مرةً»[3]. وبقوله: «لا صغيرَة مع الإصرارِ، ولا كبيرةَ مع الاستغفارِ»[4]. خرَّجهما ابن أبـي الدنيا[5].

---

(١) في الأصل: «وشر وقاية» وما أثبتناه في الأعلى من ج وهو الصواب.

(٢) في م: «بالعزم» بدون واو.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الاستغفار ٢/١٧٧، برقم ١٥١٤؛ والترمذي في جامعه، الدعوات، رقم ٣٥٥٩، ٥/٥٥٨، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، وفي رواية الترمذي: «ولو فعله في اليوم سبعين مرة»؛ وأخرجه عن أبـي نصيرة عن مولى لأبـي بكر الصديق عن أبـي بكر رضي الله عنه، وفيه جهالة مولى أبـي بكر، لذا قال الترمذي هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبـي نصيرة وليس إسناده بالقوي. انظر: جامع الأصول ٤/٣٨٥ ـ ٣٨٦؛ وجمع الفوائد ٢/٦٧٢؛ وفيض القدير ٥/٤٢٣؛ وشرح السنة للبغوي ٥/٨٠؛ والتهذيب ١/٢٥٦.

(٤) أورد النووي هذا الحديث ـ دون تخريج ـ موقوفاً على عدة صحابة فقال: «روي عن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم: لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار». (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي ٢/٨٦ ـ ٨٧).

(٥) ابن أبـي الدنيا: هو أبو بكر عبدالله بن محمد المعروف بابن أبـي الدنيا، القرشي المتوفي ٢٨١هـ، صاحب التصانيف الكثيرة. (انظر: تاريخ بغداد ١٠/٨٩؛ وتذكرة الحفاظ ٢ /٤؛ وتهذيب التهذيب ٦/١٢).

وكذا في قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم﴾[1]، وفي الصحيح: «أذنبَ عبدٌ ذنباً..»[2] الحديث[3].

---

(١) إنّ الاستغفارَ من صفاتِ المتقين، ذكرها الله تعالى، ثم رتَّبَ عليها المغفرةَ والنعيمَ المقيمَ في جنات الخلد.

قال الله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين * الذين يُنفقون في السراءِ والضراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ واللهُ يُحِبُّ المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا الله ولمْ يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها * ونعمَ أجرُ العاملين﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٣٣ ـ ١٣٦).

(٢) في ج: «إذا أذنب...».

(٣) رواه الشيخان، ولفظه عند الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت النبيَ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ عبداً أصابَ ذنباً، وربما قال: أذنبَ ذنباً. فقال: رب أذنبتُ ذنباً. وربما قال: أصبتُ، فاغفرْ لي، فقال ربه: أَعَلِمَ عبدي أنَّ له رباً يغفرُ الذنب ويأخذُ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكثَ ما شاءَ اللهُ. ثم أصابَ ذنباً، أو أذنبَ ذنباً فقال: ربِّ! أذنبتُ، أو أصبتُ آخر، فاغفرْهُ. فقال: أَعَلِمَ عبدي أنّ له رباً يغفرُ الذنبَ، ويأخُذ به؟ غفرتُ لعبدي. ثم مكث ما شاء اللهُ. ثم أذنبَ ذنباً، وربما قال: أصابَ ذنباً. قال: قال ربّ! أصبتُ، أو أذنبتُ آخرَ، فاغفرْهُ لي. فقال: أعلِمَ عبدي أنّ له رباً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي. ثلاثاً. فليعملْ ما شاء».

(صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلامَ الله﴾، الحديث ٧٥٠٧، ؛ فتح الباري ١٣/٤٦٦ ؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب =

وهو المانع من العقوبة في قوله تعالى[1]: ﴿وما كانَ اللـهُ لِيُعذِّبَهم وأنتَ [2]فيهم وما كانَ اللـهُ مُعَذِّبَهم[2] وهم يستغفرون﴾[3].

= والتوبة ٤/٢١١٢؛ وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبدالباقي، ص ٧٥٠؛ شرح السنّة ٥/٧٢ ـ ٧٣).

(١) لفظ «تعالى» ليس في م.

(٢ـ٢) ليس في م، والآية من سورة الأنفال: ٣٣.

(٣) ذكر الإمام أحمد بن علي بن حجر أن شروط التوبة ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على أن لا يعود إليه. ثم نقل قول الإمام القرطبي في «المفهم»:

«يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثَبَتَ معناه في القلب مقارناً بـاللسان، لِينحلَّ به عَقْدُ الإصرار ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة. . . فكلما وقعَ في الذنب عادَ إلى التوبة، لا من قال: أستغفرُ اللـهَ بلسانه، وقلبُهُ مُصرٌ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار».

وقال الإمام النووي في هذا الحديث: «إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفاً وأكثر وتاب في كلِّ مرة، قُبِلتْ توبتُهُ، أو تابَ عن الجميع توبة واحدةً صحتْ توبته، وقوله «اعمل ما شئت» معناه: ما دمتَ تذنب فتتوب غفرتُ لك».

قال الإمام السبكي الكبير: «والذي ذكرتُه من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة، هو بحسب وضع اللفظ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظَ أستغفر الله معناه التوبة، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة». (فتح الباري ١٣/٤٧٢)

أقول: إنَّ تكررَ الوقوعِ في الذنب ناتج عن الطبيعة البشرية وما جعل الله فيها من مطالب وغرائز. فلا تُقلع عن الشهوات الآثمة إلا بإرادة إيمانية مستعلية، تنمو في الضمير بالمجاهدة للنفس مجاهدة قوية مستمرة، مع مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والتمسك الصحيح بالشعائر الإسلامية والإكثار من تلاوة =

وإنْ وَرَدَ مقروناً بالتوبةِ[1] اختصَّ بالنوعِ الأولِ، فإنْ لمْ يصحبه النَدمُ على الذنبِ الماضي، بل كان سؤالًا مجرداً فهو دعاءٌ[2] محض، وإنْ صحبه ندمٌ فهو توبةٌ. والعزمُ على الإقلاع من تمام التوبة[3].

= القرآن العظيم والأذكار والدعوات المأثورة عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

(١) مراده: وإنْ ورد الاستغفار مقروناً بالتوبة، كقول القائل: استغفر الله العظيم وأتوبُ إليه.

(٢) في ج: «سؤال».

(٣) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «وكثيراً ما يُقرَن الاستغفارُ بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع من الذنوب بالقلوب والجوارح. وتارةً يُفْرَدُ الاستغفارُ ويرتب عليه المغفرةُ، كما ذكر في هذا الحديث وما أشبهه..»، وإنما أرادَ الإمامُ آخرَ حديث من الأربعين النووية، وإليك نصه. (جامع الترمذي ٢٤٨/٤، تحقيق إبراهيم عطوة، حديث ٣٥٤٠):

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ إنك ما دَعْوتني ورجَوْتني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي. يا ابن آدمَ لو بلغتْ ذنوبُك عَنانَ السماءِ، ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي. يا ابنَ آدمَ إنك لو أتيتني بِقُراب الأرضِ خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً، لأتيتُك بقرابها مغفرة»، «عنان» مفرده عَنانَة، أي السحابة. والعنان: السحاب.

«قُراب الأرض»: بضم القاف، ما يقارب مِلْأها.

ثم قال الإمام ابن رجب: «ومُجرَّدُ قولِ القائل: اللهم اغفرْ لي، طلبٌ منه للمغفرة ودعائها، فيكون حكمه حكمَ سَائر الدعاء، فإنْ شاء الله أَجابهُ وغفرَ لصاحبه، ولا سيما إذا خرج عن قلبٍ مُنكسرٍ بالذنوب، أو صادَفَ ساعةً من ساعاتِ الإجابةِ، كالأسحار وأدبار الصلوات... وأمـا الاستغفارُ باللسان مع =

والتوبةُ[1] إذا قُبلتْ، فهل تُقبلُ جَزْماً أم[2] ظاهراً؟ فيه خلاف معروف.

= إصرارِ القلبِ على الذنب فهو دعاءٌ مجرد، إن شاء الله أجابه وإن شاء رده. وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة. وفي المسند من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً «ويلٌ للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»، اهـ.

قال الله تعالى: ﴿والـذين إذا فعلوا فاحشـة أو ظلموا أنفسهم ذكـروا الله فاستغفروا لذنوبهم * ومَنْ يغفرُ الذنوب إلا الله * ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤُهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها * ونِعمَ أجر العاملين﴾ (سورة آل عمران: ١٣٥ ــ ١٣٦).

ثم قال الإمام ابن رجب: «وقول القائل: استغفر الله، معناه أطلب مغفرته. فهو كقوله: اللهم اغفر لي.

«فالاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارنَ عدمَ الإصرار، كما مدح الله تعالى أهله، ووعدهم بالمغفرة.

«قال بعض العارفين: منْ لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره.

«وكان بعضهم يقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير. وفي ذلك يقول بعضهم:

أَستغفـرُ الله مِنْ «استغفرُ الله» مِنْ لفظةٍ بَدَرَتْ خالفتُ معناها
وكيف أرجو إجاباتِ الدُّعاءِ وقدْ سدَدْتُ بالذنب عند الله مجراها

«فأفضل الاستغفار ما قُرنَ به تركُ الإصرار، وهو حينئذ يُؤمل توبةً نصوحاً. وإن قال بلسانه: استغفرُ الله، وهو غير مقلع بقلبه فهو داع لله بالمغفرة. كما يقول: اللهم اغفرْ لي، وهو حسن، وقدْ يُرجى له الإجابة»، اهـ. (جامع العلوم والحكم، ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥).

(١) قوله: «والتوبة» من ج، وليس في الأصل.

(٢) في م: «أو».

فيقال: الاستغفارُ المجردُ هو التوبةُ، مع طلبِ المغفرةِ بالدعاءِ، والمقرون [(١] بالتوبة هو طلبُ المغفرة بالدعاء[١)] فقط[(٢)].

وكذلك التوبةُ إنْ أُطلقَتْ دخلَ فيها الانتهاءُ عن المحظور وفعل المـأمـور، ولهـذا علَّقَ الفـلاحَ عليهـا[(٣)]، وجعـل منْ لمْ يتبْ

(١ـ١) ليس في ج.

(٢) قال الإمام الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وأما من تاب توبةَ الكذابين فمرادهُ أنه ليس بتوبة، كما يعتقده بعض الناس، وهذا حق. فإن التوبة لا تكون مع الإصرار.

«وإن قال: أستغفر الله وأتوب إليه، فله حالتان: إحداهما: أن يكون مصراً بقلبه على المعصية فهو كاذب في قوله: وأتوب إليه، لأنه غير تائب، فلا يجوزُ له أن يُخبر عن نفسه بأنه تائب وهو غير تائب.

والثانية: أن يكون مُقْلِعاً عن المعصية بقلبه...

«وجمهور العلماء على جواز أن يقول التائب: أتوب إلى الله، وأن يعاهدَ العبد ربَّه على أنْ لا يعود إلى المعصية، فإنَّ العزم على ذلك واجبٌ عليه في الحال، لهذا قال: «ما أصرَّ من استغفرَ ولو عادَ في اليوم سبعين مرة» وقال في المعاودِ للذنبِ: «قد غفرتُ لعبدي فليعمـلْ ما شـاء» وفي حديث كفـارة المجلس «أستغفرك اللهم وأتوبُ إليك» وقطع النبـي صلى الله عليه وسلم يد سارق ثم قال له: «استغفرِ اللـهَ وتُبْ إليه، فقال: أستغفرُ اللـهَ وأتوب إليه. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم تُبْ عليه» أخرجه أبو داود.

«واستحب جماعة من السلف الزيادة على قوله: أستغفر الله وأتوب إليه. فروي عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال له: ... قل: توبةَ مَنْ لا يملِكُ لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً»، اهـ. (جامع العلوم والحكم، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٣) بيَّن الله تعالى أنَّ توبةَ العبد إلى ربه طريقُ القبولِ والفلاحِ عنده تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أَيُّهَ المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ (سورة النور: ٣١).

ظالماً[1]. فالتوبةُ حينئذ تشملُ فعلَ كلِّ مأمورٍ وتركَ كلِّ محظورٍ، ولهذا كانت بداية العبدِ ونهايتَهُ، وهي حقيقةُ دين الإسلام.

وتارةً يُقرَنُ بالتقوى[2] أو بالعمل[3]، فيختصُّ حينئذ بترك المحظور[4]، والله أعلم.

وفي فضائل الاستغفار أحاديث كثيرة:

منها حديث: «جِلاءُ القلوبِ تلاوةُ القرآنِ والاستغفارُ»[5].

---

(١) نهى الله تعالى المؤمنين عن الوقوع في الآفاتِ الأخلاقية والاجتماعية ووصف الذين يُثابرون عليها ولا يتوبون بأنهم ظالمون: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَر قومٌ مِنْ قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أنْ يَكُنَّ خيراً منهن * ولا تلمزوا أنفسَكم ولا تنابزوا بالألقابِ * بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمان * ومَنْ لمْ يتبْ فأولئك هم الظالمون﴾ (سورة الحجرات: ١١).
وإنَّ وصف الباري لهم بذلك إنكار شديد عليهم وتحذير عظيم، فإنه تعالى وصفَ الشرك بأنه ظلم عظيم: ﴿إنَّ الشركَ لَظُلمٌ عظيم﴾ (سورة لقمان: ١٣).

(٢) في ج: «بالتوبة.. فتختص».

(٣) في م: «أو بالعمل الصالح».

(٤) قلت: حذر الله عباده من بعض المحظورات، ثم أعقبها بدعوتهم إلى التوبة والعملِ الصالح أو إلى التوبة والتقوى. قال الله تعالى: ﴿ومَنْ تابَ وعملَ صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ (سورة الفرقان: ٧١).
وقال: ﴿وإني لَغَفَّارٌ لمن تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً ثم اهتدى﴾ (سورة طه: ٨٢). وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعضَ الظن إثم * ولا تجسسوا * ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحم أخيه ميْتاً فكرهتموه * واتقوا الله إنّ الله توابٌ رحيم﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

(٥) رُوي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ =

وحديث: «فإنْ تابَ واستغفرَ ونَزَعَ صُقِلَ قلبُه»[1].

وحديث: «ابنَ آدم! إنك لو بلغتْ ذنوبُك عَنانَ السماءِ ثم استغفرتني على ما كان منك، غفرتُ لكَ، ولا أُبالي»[2].

وحديث ابن عمر: كنا نَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في

= للقلوبِ صدأ كصدأ النحاس، وجِلاؤها الاستغفار». رواه البيهقي. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذه القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ إذا أصابَهُ الماءُ» قيل: يا رسولَ الله وما جلاؤها؟ قال: «كثرةُ ذكرِ الموتِ وتلاوة القرآن». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(الترغيب والترهيب، عبدالعظيم المنذري ٢/٢٦٩؛ وانظر: تلاوة القرآن المجيد، عبدالله سراج الدين، ص ١٥).

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمنَ إذا أذنبَ كانتْ نُكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإنْ تابَ ونزَعَ واستغفر، صُقِلَ قلبُه منها، وإنْ زادَ زادتْ حتى تعلوَ قلبَهُ، فذلكم الرانُ الذي ذكر الله عزوجل في كتابه: ﴿كلا بلْ رانَ على قلوبِهم ما كانوا يكسبون﴾ (سورة المطففين: ١٤).

«نزع عن الأمر»: كفَّ عنه، «الران»: والرين الطبع والتغطية.

(أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب التفسير، باب ومن سورة المطففين، رقم ٣٣٣١؛ وأخرجه الإمام أحمد، رقم ٧٩٣٩؛ وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم ٤٢٤٤؛ وابن حبان، موارد الظمآن، برقم ٤٤٨؛ وأخرجه الحاكم ٢/٥١٧، ووافقه الذهبي؛ وانظر: الترغيب والترهيب ٢/٢٦٨).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وقد أوردته بتمامه من قريب، ص ٧٦ ت.

المجلس الواحدِ: «ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التوابُ الغفور»[1] مائة مرة.

وحديث أبـي هريرة مرفوعاً: «إني لأستغفرُ الله في اليوم أكثرَ من سبعين مرةً وأتوبُ إليه». خَرَّجه البخاري[2].

---

(١) في ج: «الرحيم» كذا في رواية أبـي داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار ٢/٨٥؛ وفي راوية ابن ماجه، كتاب الأدب، باب الاستغفار ٢/١٢٥٣؛ ورواه أحمد، ولفظه في المسند: إنْ كنا لَنَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول: «ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التوابُ الغفور» مائة مرة. (مسند الإمام أحمد ٦/٣٢٨، ط. دار المعارف).
ورواه أبو داود عن ابن عمر أيضاً، وفيه: «.. في المجلس الواحد.. إنك أنت التواب الرحيم». (سنن أبـي داود ١/٣٤٨، ط. أولى مصطفى البابـي الحلبـي؛ وانظر شرح السنّة ٥/٧١؛ وجامع العلوم والحكم، ص ٣٤٦ فقد أورد رواية أبـي داود).
أقول: وقد أَيد الإمام ابن رجب رحمة الله عليه هذا الحديثَ بأَحاديثَ أخرى، وكلها تدل على أن العدد مقصود في الاستغفار وغيره من الأذكار. فالعجب كل العجب ممن زعم أن العدَّ بدعة، وأنَّ فاعلَ ذلك إنما يحسب على الله..!!
وقد نسي أمثالُ هذا أن الله افترض على كل مسلم أن يعد ركعات الصلوات المفروضة..!!.
وإنَّ كل مسلم عاقل يعلم أنه إنما يَعُدُّ على نفسه تَثَبُّتاً من أداء ما عليه من فرائض وسنن ونوافل. فما أفحش ضرر الجهل وما أقبح العصبية!!؟.

(٢) رواه البخاري في صحيحه بلفظ: «قال أبو هريرة: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «واللهِ إني لَأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة». (صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبـي في اليوم والليلة؛ فتح الباري ١١/١٠١).

ومن حديثه[1] مرفوعاً: «لو لمْ تُذنبوا لَذَهبَ الله بكم، ولَجَاء بقوم ٍ يُذنبون ثم يستغفرونَ، فيَغْفِرُ لهم». خرّجه مسلم[2].

وفي المسند من حديث عطية[3] عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قالَ حينَ يأْوي إلى فراشه: أَستغفرُ اللـهَ الذي لا إلهَ إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه [ثلاث مرات][4]، غفرَ(٥ اللـهُ لهُ ذنوبَهُ٥) وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ وإنْ كانتْ مثلَ رملِ عالجٍ، وإنْ كانت [مثل][6] عدد ورقِ الشجر».

= ورواه الترمذي بنحوه وفيه: «... في اليوم سبعين مرة»، وفي رواية أخرى: «... في اليوم مائة مرة». (كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة محمد، حديث ٢٥٩)؛ وانظر جامع الأصول ٣٨٧/٤؛ وجامع العلوم والحكم، ص ٣٤٦.

(١) في ج: «وحديثه».

(٢) قوله: «خرجه مسلم» ليس في م. والحديث كما رواه الإمام مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا لَذَهَبَ اللـهُ بكم، ولَجاءَ بقومٍ يُذنبون، فيستغفرون الله فَيَغْفِرُ لهم». (صحيح الإمام مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٢١٠٦/٤، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط. مصر).

(٣) عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي، الكوفي، تابعي ضعيف، توفي سنة ١٢٧هـ. (ميزان الاعتدال ٧٩/٣؛ وتهذيب التهذيب ٢٢٤/٧).

(٤) من المسند زيادة: «ثلاث مرات».

(٥ـ٥) في ج: «غفرت ذنوبه».

وفي م: «غفر له ذنوبه».

(٦) من المسند زيادة «مثل». (المسند ١٠/٣).

وحديث: «مَنْ أَكْثَر منَ الاستغفارِ جعلَ اللـهُ لهُ من كلِّ همٍّ فرجا». خرجه أحمد من حديث ابن عباس[1].

ويعضده قولهُ تعالى: ﴿استغفروا ربَّكم إنه كـان غفاراً...﴾ الآيات[2].

وقـوله: ﴿وأنِ استغفـروا ربَّكم ثم توبـوا إليه يُمتعْكم متـاعاً حسنا﴾[3].

قال رياح القيسي[4]: «لي نَيِّفٌ وأربعون ذنباً، قد استغفرتُ لكلِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، ولفظه عند أبـي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقَهُ من حيثُ لا يحتسب». (مسند الإمام أحمد، حديث ٢٢٣٤؛ وسنن أبـي داود، كتاب الصـلاة، باب في الاستغفـار ١/٣٤٨؛ وسنن ابن ماجـه، كتاب الأدب، الاستغفار، حديث ٣٨١٩؛ وشرح السنّة ٥/٧٩).

وقال في أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد: «ورواه النسـائي وابن ماجه.. ورواه أحمد وإسناده صحيح». (جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢/٦٧٣).

(٢) قال الله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿فقلتُ استغفروا ربَّكم إنه كان غفاراً * يُرسل السماءَ عليكم مدراراً ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنينَ ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهاراً﴾ (سورة نوح: ١٠ ــ ١٢).

(٣) وتمام الآية: ﴿إلى أجلٍ مُسمى ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَهُ * وإن تَولَّوا فإني أخافُ عليكم عذاب يوم كبير﴾ (سورة هود: ٣).

(٤) رياح بن عمرو، أبو المهاجر القيسي البصري، المتضرع بالدعاء والبكاء. (حلية الأولياء ٦/١٩٢).

ذنبٍ مائة (١ ألف مرة١)».

قال الحسن[٢]: «لا تَمَلُّوا من الاستغفار».

وقال بكر المُزَنيّ[٣]: «إنَّ أعمالَ بني آدم تُرفع، فإذا رُفعتْ صحيفةٌ فيها استغفارٌ رُفعتْ بيضاءَ، وإذا رُفعت صحيفةٌ ليس فيها استغفارٌ رُفعت سوداء».

وعن الحسن قال: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم [وفي مجالسكم وأينما كنتم][٤] فإنكم ما تدرون[٥] متى تنزل المغفرة».

وقال لقمان لابنه: «أيْ[٦] بُنيَّ عَوِّدْ لسانَكَ «اللهم اغفر لي» فإنَّ

(١ ـ١) في ج: «أربعين ألف مرة»، وفي «جامع العلوم والحكم» كما أثبتنا أعلاه (انظره في: ص ٣٤٧، وأورده بنصه أبو نعيم في الحلية ٦/١٩٤).

(٢) الحسن البصري، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن، تابعي. قال ابن سعد: «كان الحسن جامعاً عالماً، عالياً رفيعاً، فقيهاً ثقة مأموناً، عابداً ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً.. وقدم مكة فأجلسوه على سرير، واجتمع الناس إليه فحدثهم، وكان فيمن أتاه مجاهد، وعطاء وطاووس، وعمرو بن شعيب، فقالوا: أو قال بعضهم: لم نَرَ مثلَ هذا قط. (الطبقات ٧/١٥٧ ـ ١٥٨؛ وانظر حلية الأولياء ٢/١٣١ ـ ١٦٠؛ وشرح علل الترمذي، لابن رجب الحنبلي ١/٢٩٠ ـ ٢٩١، و٢/٤٩٥، تحقيق الدكتور نور الدين عتر).

(٣) بكر بن عبدالله المزني تابعي، ناصح زكي، واثق غني. (حلية الأولياء ٢/٢٢٤ ـ ٢٣٢).

(٤) زيادة من جامع العلوم والحكم، ص ٣٤٤.

(٥) في م: «لا تدرون».

(٦) في ج: «يا بني» وكذا في: جامع العلوم والحكم.

لله[1] ساعات لا يردُّ فيهن[2] سائلاً»[3].

ورُئِيَ عمرُ بنُ عبدالعزيز في النوم، فقيل له: ما وجدتَ أفضلَ؟ قال: الاستغفار.

آخرُ ما وُجد من خط المصنف، بلغ مقابلة على أصله[4].

---

(١) قوله: «لله» ليس في م.

(٢) في ج: «فيها» وكذا في جامع العلوم والحكم، ص ٣٤٤.

(٣) ومن هذه الساعات ما هو محدد معلوم كيوم عرفة وساعةِ الإجابة في يوم الجمعة وساعةِ السحر، فالحمدُ لله الذي مَنَّ على أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم بمعرفتها.

فهناك هباتٌ ومِنحٌ إلهية في ساعات قبول، وهناك نفحات نثرها الله تعالى على مدى الدهر وطول العمر، فإذا تعرضتَ لها بطهارة ظاهرة وباطنة وبحضور القلب وإخلاص النية وحسن التوجه، حظيتَ بمواهب جليلة ومنح جزيلة من فضل الله تعالى، تزيدُ على ما يمكن تحصيله في الأزمان الطويلة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها، لعله أنْ يُصيبَكم نفحةٌ منها فلا تشقون بعدها أبداً». رواه الطبراني والحكيم الترمذي ورواه البيهقي بلفظ آخر.

(٤) كذا ثبت في آخر النسخة الأصل، وهو من قول الناسخ. وثبت في آخر النسخة (ج): «آخره، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين».

أقول: هذا آخر ما وفق الله إليه من تعليق على هذه الرسالة القيمة. أسأل الله العظيم من فضله العظيم أن يتقبل جهدي خالصاً لوجهه الكريم وأن يزيدنا علماً وبراً وإخلاصاً، ويمنحنا من بحر جوده وإحسانه فوق ما نُؤمله ونرجوه، إنه الحنان المنان ذو الجلال والإكرام. وصلِّ اللهم على سيد المرسلين محمد طه الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. وسلمْ تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين.

ثبت المراجع (*)

(١) القرآن العظيم كتاب الله تبارك وتعالى.

(أ)

(٢) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ط. المشهد الحسيني بمصر.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، ط. الحسينية بمصر.

(٤) أساس البلاغة، الزمخشري، ط. مصر.

(٥) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ابن عبدالبر، على هامش الإصابة، ط. مصر.

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، مع الاستيعاب، ط. مصر.

(٧) إنباء الغمر بأنباء العمر، ابن حجر، ط. المجلس الأعلى بمصر.

(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، ط. مصر.

(ب)

(٩) البحر المحيط، محمد بن حيان الأندلسي، ط. السعادة. مصر.

(*) على ترتيب الألف باء.

(١٠) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، مطبعة الفجالة الجديدة بمصر.

(١١) البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر.

(ت)

(١٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ط. السلفية بالمدينة المنورة.

(١٣) تدريب الراوي، جلال الدين السيوطي، ط. مصر.

(١٤) الترغيب والترهيب، المنذري، ط. مصر.

(١٥) تعجيل المنفعة، ابن حجر، ط. الهند.

(١٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ط. دار الشعب بمصر.

(١٧) تقريب التهذيب، ابن حجر، ط. مصر.

(١٨) تهذيب التهذيب، ابن حجر، ط. الهند.

(١٩) تلاوة القرآن المجيد، عبدالله سراج الدين، ط. المدينة المنورة.

(ج)

(٢٠) الجامع، الإمام الترمذي، ط. حمص.

(٢١) جامع الأصول، ابن الأثير الجزري، ط. دمشق.

(٢٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط. مصر.

(٢٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط. مصر.

(٢٤) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط. دار الكتب المصرية.

(٢٥) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، محمد بن سليمان، وبذيله أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد، السيد عبدالله هاشم اليماني، ط. سنة ١٣٨١ ـ ١٩٦١.

(ح)

(٢٦) حاشية الشهاب الخفاجي على أنوار التنزيل، تصوير لبنان.

(٢٧) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، تصوير لبنان.

(خ)

(٢٨) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، صفي الدين أحمد بن عبدالله الخزرجي، ط. مصر.

(د)

(٢٩) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر، ط. ثانية، مصر.

(٣٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، ط. مصر.

(ذ)

(٣١) ذيل تذكرة الحفاظ، السيوطي، مع مجموعة ذيول التذكرة، ط. القدسي دمشق.

(ر)

(٣٢) روح المعاني، محمود الألوسي، تصوير لبنان.

(ز)

(٣٣) الزهد، الإمام أحمد بن حنبل، ط. لبنان.

(٣٤) الزهد، الإمام هناد بن السري، تحقيق وتخريج ودراسة محمد أبو الليث الخيرآبادي رسالة الماجستير، جامعة أم القرى ١٤٠٥هـ.

(س)

(٣٥) السنن، الدارمي، ط. دار الفكر بمصر.

(٣٦) السنن، ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط. مصر.

(٣٧) السنن، أبو داود، ط. ثانية، التجارية بمصر.

(٣٨) السنن، النسائي، ط. التجارية بمصر.

(٣٩) سيدنا محمد رسول الله، عبدالله سراج الدين، ط. حلب.

(٤٠) السيرة النبوية، ابن هشام، ط. مصر.

(٤١) السيرة النبوية، ابن كثير، ط. القاهرة ١٩٦٥.

(ش)

(٤٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ط. القدسي بمصر.

(٤٣) شرح السنّة، البغوي الفرّاء، ط. لبنان.

(٤٤) شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق د. نورالدين عتر، ط. دمشق.

(ص)

(٤٥) الصحيح، الإمام البخاري، على فتح الباري، ط. المنيرية.

(٤٦) الصحيح، الإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط. مصر.

(٤٧) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ط. حلب.

(ط)

(٤٨) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ط. لبنان.

(ع)

(٤٩) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدرالدين محمود العيني، تصوير لبنان.

(٥٠) عيون الأثر، ابن سيد الناس، ط. دار المعرفة بلبنان.

(ف)

(٥١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ط. المنيرية.

(٥٢) الفرق بين الفرق، أبو منصور البغدادي، ط. مصر.

(٥٣) فضيلة الشكر، الخرائطي، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر.

(٥٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ط. مصر.

(ك)

(٥٥) الكشاف عن غوامض القرآن، محمود بن عمر الزمخشري، ط. مصطفى البابي.

(٥٦) الكواكب النيرات، ابن كيال، مركز البحث العلمي بمكة المكرمة.

(ل)

(٥٧) لحظ الألحاظ بذيل تذكرة الحفاظ، تقي الدين محمد بن فهد المكي، نشر القدسي بدمشق.

(٥٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبدالباقي، ط. مصر.

(م)

(٥٩) المجروحين من الضعفاء والمتروكين، ابن حبان، ط. حلب.

(٦٠) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبدالله النسفي، ط. مصر.

(٦١) المسند، الإمام أحمد بن حنبل، ط. مصر.

(٦٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، ط. مصر.

(٦٣) المغازي، الواقدي محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق د. مارسدن جونس، ط. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

(٦٤) المغني في الضعفاء، الذهبي، تحقيق د. نورالدين عتر، ط. حلب.

(٦٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ط. لبنان.

(٦٦) مقدمة التفسير، عبدالحليم بن تيمية، ط. بيروت.

(٦٧) مناهل العرفان في علوم القرآن، عبدالعظيم الزرقاني، ط. ثالثة بمصر.

(٦٨) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، تصوير بيروت.

(٦٩) منهج النقد في علوم الحديث، نورالدين عتر.

(٧٠) ميزان الاعتدال، الذهبي، تصوير بيروت.

(ن)

(٧١) النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز، ط. مصر.

(و)

(٧٢) الوابل الصيب، محمد بن قيم الجوزية، ط. الرياض.

(٧٣) الوضع في الحديث، د. عمر حسن عثمان فلاته، ط. لبنان.

* * *

ملاحظة: ذكرت في التعليق الطبعة المغايرة لما ورد في هذا الثبت لدى الرجوع إليها.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
وعظه تتصدع له القلوب.	٢٦
تعاظم نفع الإمام لجمعه بين علوم الحديث وبين الفقه والأصول.	٢٧
عزلة الإمام ابن رجب.	٣١
إنما يستفاد من علم العلماء العاملين ولا تملى عليهم الفتاوى والآراء.	٣١
حرمة الطعن في العالم المجتهد إذا أخطأ في اجتهاده.	٣٢
منهج الإمام ابن رجب في تفسير سورة النصر.	٣٤
مزايا تفسير الإمام للسورة.	٣٦
التعريف بمخطوطات «تفسير سورة النصر».	٣٧
منهج تحقيق الرسالة.	٤٠
مصورات من المخطوطات.	٤١ ـ ٤٤
نص مخطوط سورة النصر محققاً.	٤٥ـ١٠٧
فضل سورة النصر.	٤٧
التحقيق أنها آخر سورة نزلتْ كاملة.	٤٩ ـ ٥١
وقت نزولها، ودراسة النصوص الواردة في ذلك.	٥١ ـ ٥٧
عطاء بن السائب، اختلاطه.	٥٢ ت،
نقد قول الزمخشري بأنها نزلت في حجة الوداع.	٥٤ ت،
ترجيح الإمام أن «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان.	٥٥ ـ ٥٦
ترجيح الإمام نزول السورة قبل الفتح.	٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.	٥٧
إخبار السورة بفتح مكة قبل وقوعه من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم.	٥٧ ت،
المقصود من «نصر الله» في السورة.	٥٨
المراد بـ «الفتح» فتح مكة.	٥٩
تفسير: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.	٦١ ـ ٦٧
لا هجرة بعد الفتح.	٦٣
قدوم الأشعريين طليعة وفود اليمن قبل فتح مكة.	٦٥ ـ ٦٧
المراد بـ «الناس».	٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك﴾.	٧٢
الأمر بالتسبيح عام غير مخصوص بصيغ وأحوال معينة.	٧٢ ت،

الموضوع	الصفحة

